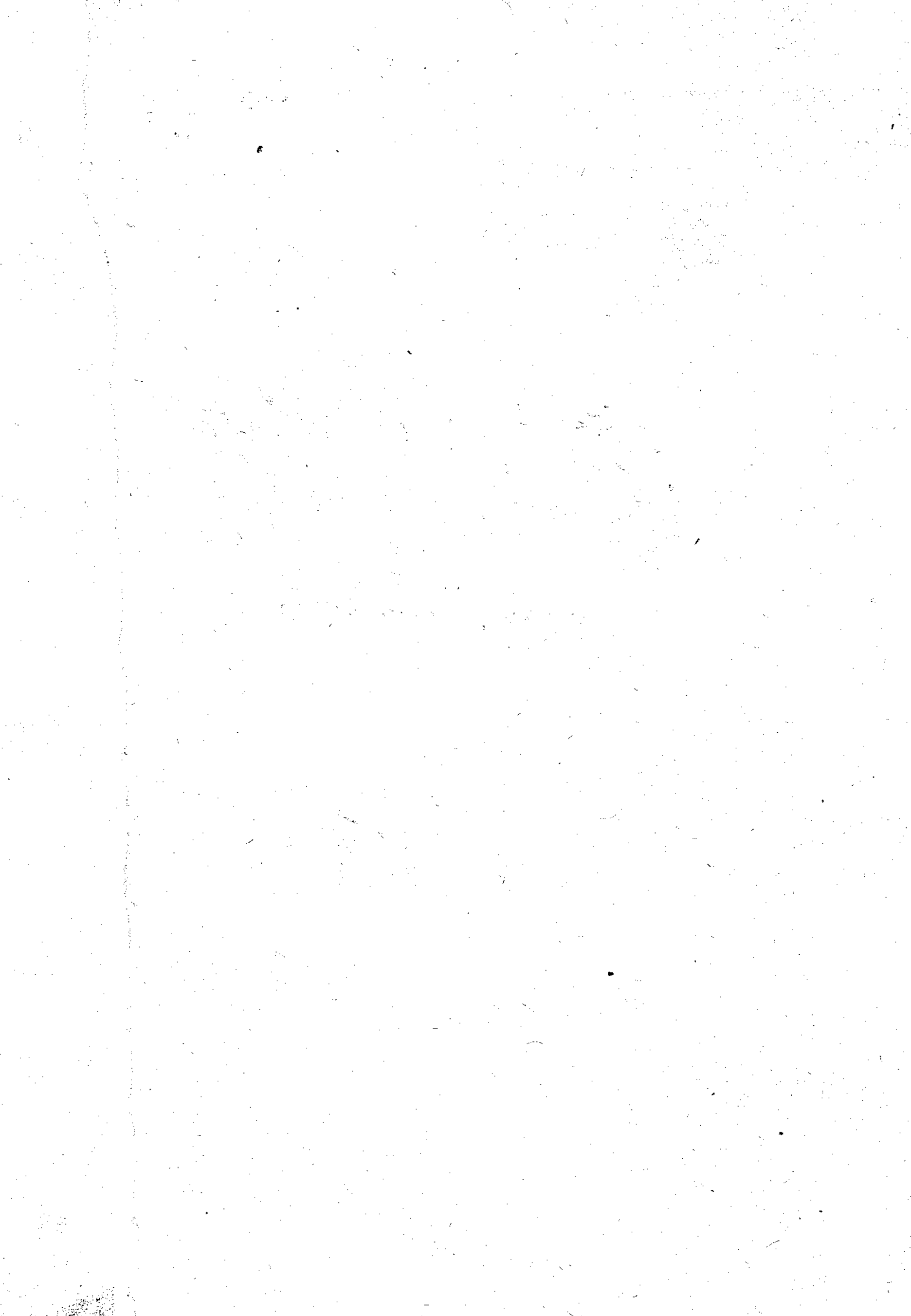
أبو بكر الطرطوشي

العالم الزاهد الثائر

تأليف
الدكتور جمال الدين الشيال



أبو بكر الطرطوشى
محمد بن الوليد

٤٥٠ ـ ٥٢٠ هـ = ١٠٥٨ ـ ١١٢٦ م

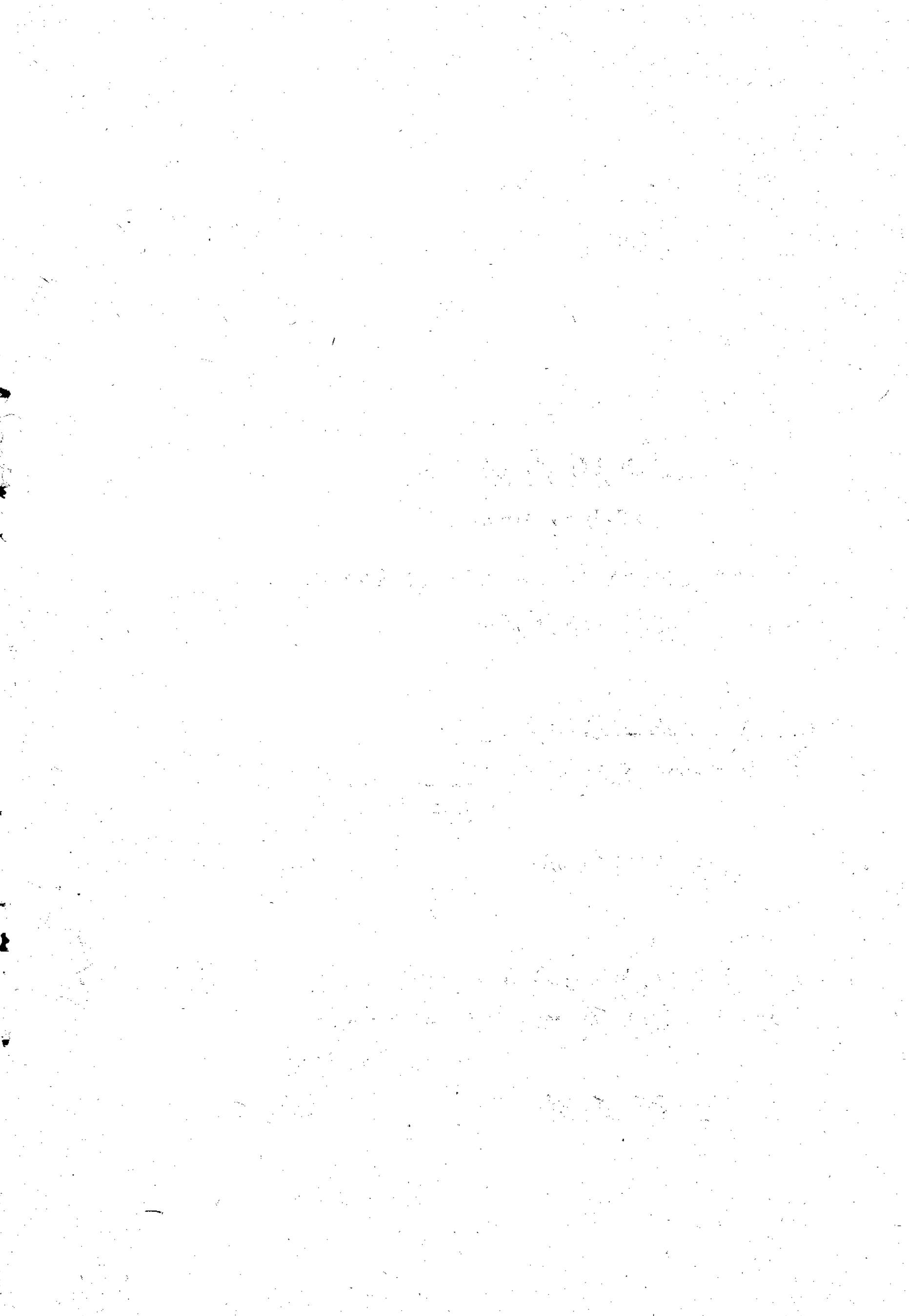
العالم الزاهد الثائر

((اذا عرض لك أمران ـ أمر دنيا وأخرى ـ فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى)) .

أبو بكر الطرطوشى

((ان الرعية اذا قدرت على أن تقول قدرت على أن تفعل ، فاجتهد ألا تقول تسلم من أن تفعل)) .

أبو بكر الطرطوشى



الباب الأول

نشأته الاولى واسرته

(أ) دراسته الأولى على أبى الوليد الباجى .

(ب) أسرته .

(أ) دراسته الأولى على أبى الوليد الباجى

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان ابن أيوب القرشي الفهرى الطرطوشي ، المشهور بابن أبى رندقة .

ولد فى سنة ٤٥٠ أو ٤٥١ هـ فى مدينة طرطوشة ، واليها ينسب /

وطرطوشة ـ كما وصفها ياقوت الحموى فى كتابه معجم البلدان ـ مدينة كبيرة من مدن الأندلس ، تقوم على سفح جبل الى الشرق من بلنسية وقرطبة ، بينها وبين البحر عشرون ميلا ، وهى مدينة منيعة يحيط بها سور من الصخر حصين بناه بنو أمية ، وللسور أربعة أبواب ملبسة كلها بالحديد ، وبها دار لصناعة السفن ، ففى المدينة وعلى جبالها ينبت شجر الصنوبر الذى لا يوجد له نظير فى الطول والغلظ ، ولا يفعل فيه السوس ما يفعله فى غيره من الخشب ، ومنه تتخذ صوارى السفن .

وكانت طرطوشة الى هذا مدينة تجارية عظيمة ، بها أسواق وعقارات وضياع ، وسوقها فى الربض القبلى جامعة لكل صناعة ومتجر ، وكان بها جامع كبير به خمس بلاطات ، وله رحبة واسعة ، بنى سنة ٣٤٥ هـ ، كما كان بها أربعة حمامات .

فى هذه المدينة الأندلسية الكبيرة نشأ فقيهنا وعالمنا أبو بكر الطرطوشى ، وفيها درج ينعم بجمالها الطبيعى الملهم ، فالمدينة تحتضنها الجبال الشاهقة ، تغطيها أشجار الصنوبر الفارعة السامقة ، وتطل من بعيد على البحر الأبيض المتوسط بأمواجه الصاخبة حينا ، الهادئة المتهادية حينا آخر .

وفى مسجد طرطوشة الكبير تلقى أبو بكر محمد بن الوليد علومه الأولى ، ولما شب عن الطوق رحل الى مدن الأندلس الكبيرة الأخرى

يستزيد من [illegible] فذهب الى مدينة سرقسطة ، واتصل بكبير علمائها فى ذلك [illegible] القاضى أبى الوليد الباجى ، وأخذ عنه مسائل الخلاف ، وسمع منه ، وأجاز له .

وابو الوليد الباجى هو شيخ الأندلس وعالمها فى ذلك الوقت دون منازع ، وخاصة بعد وفاة نده ومنافسه ابن حزم ، فاليه كانت تشد الرحال ، والى حلقته كانت تفد جموع الطلاب من مشارق الأندلس ومغاربها ، ويبدو أن الطرطوشى بدأ يتتلمذ على الباجى وهو فى سن العشرين أو نحوها ، أى حوالى سنة ٤٧٠ هـ ، لأن أبا الوليد الباجى توفى سنة ٤٧٤ هـ .

وتجمع المراجع كذلك على أن الطرطوشى قرأ الفرائض والحساب بوطنه ، وان كانت لا تذكر الشيوخ الذين أخذ عنهم هذين العلمين .

وانفرد المقرى فى كتابه « نفح الطيب » بقوله ان الطرطوشى قرأ الأدب على أبى محمد بن حزم بمدينة اشبيلية ، ولسنا نميل الى تصديق المقرى فى قوله هذا ، لأن ابن حزم توفى سنة ٤٥٦ هـ ولم يكن الطرطوشى فى هذه السنة قد جاوز الخامسة أو السادسة من عمره ، ولا يعقل أن يرتحل الطرطوشى فى هذه السن الصغيرة الى اشبيلية ، وأن يتتلمذ على ابن حزم ، ويأخذ عنه الأدب أو يفقهه ، وقد يكون قرأ كتبه فى الأدب بعد ذلك بنفسه ، أو على واحد من تلاميذ ابن حزم ، ومن هنا ذكر هو أو ذكر عنه أنه تتلمذ على ابن حزم فى الأدب .

(ب) أسرته

ولسنا نعرف شيئا عن أسرة فقيهنا أبى بكر الطرطوشى ، فان المراجع التى أرخت له لم تذكر حرفا واحدا عن هذه الأسرة :

هل كانت هذه الأسرة غنية فنقول انه نشأ فى بحبوحة من العيش ؟

أو هل كانت فقيرة فنقول انه ذاق مرارة العوز منذ طفولته الأولى ؟

هل كان أهلوه ذوى جاه وسلطان ؟

هل كانوا من المشتغلين بالتجارة ، وطرطوشة كما رأينا مدينة تجارية ؟

هل كانوا من رجال العلم ولهذا نشأ فقيهنا عالما ؟

هل كانوا رجال حرب ، والأندلس كانت تضطرم فى ذلك الوقت بالفتن وتنتهبها الانقسامات ؟

لا نستطيع فى الحقيقة أن نجيب على هذه الأسئلة الا استنتاجا ، فان الطرطوشى يروى فى كتابه « سراج الملوك » قصة واحدة عن فرد واحد من أفراد أسرته ، نفهم من هذه القصة أن أسرة والدته كانت من سرقسطة ، ولعل هذا يفسر لم اتجه فى رحلته العلمية الأولى الى هذه المدينة ؛ ونفهم منها كذلك أن بعض أفراد هذه الأسرة كانوا من رجال الحرب الشجعان المبرزين ، فهذه القصة تتحدث عن الشجاعة الخارقة لرجل اسمه أبو الوليد بن فتحون ، كان خالا لوالدة الطرطوشى .

ولنستمع الى الطرطوشى نفسه يروى هذه القصة ، قال :

« كان بسرقسطة فارس يقال له ابن فتحون ، وكان يناسبنى فيقع خال والدتى ، وكان أشجع العرب والعجم ، وكان المستعين أبو المقتدر يرى له ذلك ويعظمه ، وكان يجرى عليه فى كل عطية خمسمائة دينار ، وكانت النصرانية بأسرها قد عرفت مكانه ، وهابت لقاءه ، فيحكى أن الرومى كان اذا سقى فرسه فلم يشرب يقول له : اشرب ، هل إبن فتحون رأيت فى الماء ؟ !

فحسده نظراؤه على كثرة العطاء ومنزلته من

السلطان ، فأوغروا به صدر المستعين ، فمنعه أياما ؛ ثم ان المستعين أنشأ غزوة إلى بلاد الروم ، فتواقفت المسلمون والمشركون صفوفا ، ثم برز علج الى وسط الميدان ينادى : هل من مبارز ؟ فخرج اليه فارس من المسلمين ، فتجاولا ساعة ، فقتله الرومى ، وصاح الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين .

وجعل الرومى يكر بين الصفين وينادى : هل من اثنين لواحد ؟ فخرج اليه فارس من المسلمين ، فقتله الرومى ، فصاح الكفار سرورا ، وانكسرت نفوس المسلمين .

وجعل يجول بين الصفين ويقول : ثلاثة لواحد ؟ فلم يستجر أحد من المسلمين أن يخرج اليه ، وبقى الناس فى حيرة .

فقيل للسلطان : مالها الا أبو الوليد بن فتحون ؛ فدعاه وتلطف به ، وقال له :

ــ أما ترى ما يصنع هذا العلج ؟

فقال : هو بعينى .

فقال : فما الحيلة فيه ؟

فقال أبو الوليد : فماذا تريد ؟

فقال : أكف المسلمين شره .

فقال : الساعة يكون ذلك ان شاء الله تعالى .

فلبس قميص كتان ، واستوى على سرجه بلا سلاح ، وأخذ بيده سوطا طويل الطرف ، وفى طرفه عقدة معقودة ، ثم برز اليه ، فعجب منه النصرانى ، ثم حمل كل واحد منهما على صاحبه ، فلم تخط طعنة النصرانى سرج ابن فتحون ، واذا ابن فتحون متعلق

برقبـــة الفرس ، ونزل الى الأرض لا شيء منه فى السرج ، ثم طفر على سرجه ، وحمل عليه ، وضربه بالسوط فى عنقه ، فالتوى على عنقه ، فجذبه بيده من السرج ، فاقتلعه عن سرجه ، وجاء به يجره ، فألقاه بين يدى المستعين .

فعلم المستعين أنه كان قد أخطأ فى صنعه معه ، فأكرمه ، ورده الى أحسن أحواله » .

فوالدة الطرطوشي كانت اذن من أسرة ذات جاه فى سرقسطة ، يمتهن أحد رجالها فن الحرب والقتال ، ويبرز فى هـــذا الفن فيتفوق على أقرانه جميعا حتى يقربه السلطان اليه ، ويغدق عليه العطايا ، ويعتز بشجاعته ، فيلجأ اليه فى الملمات .

أما والد الطرطوشي فاسمه الوليد ، وان كانت المراجع تذكر أن أبا بكر الإبن كان يعرف « بابن أبى رندقة » (١) .

فهل كانت « أبو رندقة » كنية لأبيه ؟ وما معناها الذى تذكره المراجع أنها لفظة فرنجية ، فاذا صح أنها كانت كنية لأبيه ، فهل كان أبوه ينحدر اذن من أصل اسبانى مسيحى ؟

أغلب الظن أنه لم يكن كذلك ، فان نسبه فيما وصل الينا واضح ، وينتهى الى قريش ، فهو محمد بن الوليد بن محمـــد ابن خلف بن سليمان بن أيوب القرشي الفهرى ، فهو من أصـــل

---

(١) هى « رندقة » بضم الراء عند ابن فرحون ، و « رندقة » بفتح الراء عند ابن خلكان والمقرى ، وقد فسرها ابن خلكان فقال انها كلمة فرنجية معناها تعال هنا ، وقد حاول المؤرخ الأسبانى Pons Boigues فى كتابه (Ensayo - Bio - Bibliografico sobre las Historiadores Y geografos esrabigo - Espanoles. madrid 1898) ان يبرر تفسير ابن خلكان ، فقال ان الكلمة مكونة من لفظين ، الأول بمعنى تعال أى أقبل وهى مأخوذة من الفعل الفرنسى Rendre ، والثانية (هنا) وهى بالأسبانية (açà) ، فاذا جمعا صارا (Rand-acà)

عربى واضح ، ولعله كنى بهذه الكنية الفرنجية فى حياته لأمر لا نعرفه يتصل بالمعنى الحقيقى لهذا اللفظ .

أما مهنته فلسنا نعرف عنها شيئا كذلك ، ولكننى أرجح أنه لم يكن يمتهن التجارة أو الصناعة والا لنشأ ابنه على احدى هاتين الحرفتين كما كانت العادة الغالبة بين سكان المدن الكبرى فى العصور الوسطى .

وأبو بكر الطرطوشى نفسه يصرح أنه لم يكن يفقه شيئا فى التجارة ، وأنه لم يحترف حرفة ما ، فان هذه كانت كبرى مشاكله عندما فكر فى الرحلة الى المشرق ، يقول فى كتابه « سراج الملوك » :

« وأما أنا ، فلما هممت بالرحيل من بلدى الى المشرق فى طلب العلم كنت لا أعرف التجارة ، ولا لى حرفة أرجع اليها ، فجزعت من الخروج ، وكنت أقول : « اذا ذهبت نفقتى فماذا أفعل ؟ » .
وكان أقوى الآمال فى نفسى أن أحفظ البساتين بالأجرة ، وأدرس العلم بالليل ، ثم استخرت الله فرحلت ، وكانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى » .

فالذى نرجحه أن والده كان عالما أو من المشتغلين بالعلم ، وأنه لهذا وجه ابنه هذه الوجهة التى يرضاها ، وأن أسرته كانت على شىء من الثراء ، ولهذا استطاع أن يعيش فى وطنه حتى الخامسة والعشرين من عمره وهو عالة على أهله ، يطلب العلم وهم يكفونه مؤونة السعى وراء الرزق ، ولهذا استطاع أيضا أن يزود قبل خروجه للرحلة بنفقة وافرة ـ كما يقول .

ولكن الذى كان يشغل باله أن تنفد هذه النفقة أو تفقد ، وهو لا يعرف حرفة يرتزق منها ، فهداه تفكيره ان حدث له شىء

من هذا أن يعمل حارسا للبساتين ، ليفرغ فى الليل لدراسة العلم ، ثم استخار الله وتوكل عليه وبدأ رحلته . وشاق الطرطوشى ما كان يشوق رصفاءه من فقهاء الأندلس ، شاقته الرحلة الى المشرق للحج ولطلب العلم ، أو لعله أعجب بسيرة أستاذه أبى الوليد الباجى ، فأراد أن ينهج نهجه ، فقد رحل الباجى من قبل الى المشرق ، وحج ومكث فى مكة ثلاث سنوات ، ثم زار مدن الشرق الكبرى : بغداد والموصل ودمشق ، واتصل بأعلامها وعلمائها ، وأخذ عنهم ، وأخذوا عنه ، ورجع الى وطنه بعد ثلاثة عشر عاما ، حصل فى ابانها علما كثيرا ، وأفاد تجربة وقدرة على الجدل والمناقشة ، فأثار فى محافل العلم الأندلسية ضجة كبرى .

فلم لا يحتذى التلميذ حذو أستاذه ؟

فلعله يبلغ من المجد العلمى ما بلغ أستاذه .

الباب الثانى

الطرطوشى فى المشرق

(أ) فى مكة :

(ب) فى العراق :

١ ـ الطرطوشى والمدرسة النظامية فى بغداد .

٢ ـ أساتذة الطرطوشى فى بغداد .

٣ ـ اتجاه الطرطوشى الى التصوف منذ كان فى بغداد .

(ج) فى الشام :

١ ـ فى بيت المقدس وجبل لبنان .

٢ ـ فى أنطاكية .

الطرطوشى فى المشرق

(أ) فى مكة

فى سنة ٤٧٦ هـ غادر الطرطوشى وطنه ــ وهو غض الشباب فى الخامسة والعشرين من عمره ــ ليبدأ رحلته الى الشرق .

ونحن لا نعرف شيئا عن المرحلة الأولى من رحلته هذه .

فلا نعرف مثلا هل سلك طريق البحر أو طريق البر ، ولا نعرف أى الأقطار أو البلدان زار فى طريقه .

ولكننا نلقاه أول ما نلقاه فى مكة وقد استقر بها قليلا بعد أداء فريضة الحج ، يلقى بعض الدروس ، فقد روى مواطن من مواطنيه ــ زامله فى شبابه الأول ، وتتلمذ معه فى سرقسطة على أبى الوليد الباجى ــ أنه رآه فى مكة ، واستمع الى بعض دروسه هناك .

هذا المواطن هو القاضى أبو على الحسين بن محمد بن فرو الصدفى ، قال :

« صحبته عند الباجى ، ولقيته بمكة ، وأخذت عنه أكثر السنن لأبى داود عن التسترى » .

ولم يمكث أبو بكر الطرطوشى فى مكة طويلا ، بل استأنف رحلته ، واتجه الى بغداد ، فان مواطنه وزميله أبا على الحسين ابن محمد الصدفى ــ الذى قابله فى مكة ــ يستطرد فى حديثه عنه فيقول :

« ثم دخل بغداد وأنا بها » .

(ب) فى بغـــداد

١ ـ الطرطوشى والمدرسة النظامية :

كانت بغداد فى ذلك الوقت مركزا من أكبر مراكز العلم فى العالم الاسلامى ، وكانت محط رحال العلماء ، يفدون اليها من أقصى المشرق ومن أقصى المغرب ، فكان لابد لأبى بكر الطرطوشى ــ وقد رضيت نفسه بأداء فريضة الحج والمجاورة فى مكة وقتا ما ــ أن يرحل اليها ليستكمل دراسته ، ويتصل بعلمائها الأعلام ، ويتتلمذ عليهم ، ويأخذ عنهم .

وكان يلى أمور الشرق فى ذلك الوقت نظام الملك ــ وزير الملكين السلجوقيين : ألب أرسلان وملك شاه ــ ، وهو وزير عالم يحب العلم والعلماء ، ويقربهم اليه ، ويغدق عليهم العطايا .

وقد شهد الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد آثار هذه السياسة العلمية الحصيفة التى اصطنعها نظام الملك لنفسه وللدولة ، وأشاد بذكرها فى كتابه « سراج الملوك » ، قال :

« وذلك أنى لما كنت بالعراق ، وكان الوزير نظام الملك قد وزر لأبى الفتح ــ ملك الترك ــ ابن ألب أرسلان ، وكان قد وزر لأبيه من قبله ، فقام بدولتهما أحسن قيام ، فشد أركانهما ، وشد بنيانهما ، واستمال الأعـــداء ، ووالى الأولياء ، واستعمل الكفاة ، وعم احسانه العـــدو والصديق ، والبغيض والحبيب ، والبعيد والقريب ، حتى ألقى الملك بجرانه ، وذل الخلق لسلطانه .

وكان الذى مهد له ذلك باذن الله تعالى وتوفيقه ، أنه أقبل بكليته على مراعاة رجال الدين ، فبنى دور العلم للفقهاء ، وأنشأ المدارس للعلماء ، وأسس الرباطات للعباد والزهاد وأهل الصلاح والفقراء ، ثم أجرى لهم

الجرايات والكساوى والنفقات ، .. وعم بذلك أقطار مملكته ، فلم يكن من أوائل الشام ـ وهى بيت المقدس ـ الى سائر الشام الأعلى وديار بكر والعراقين ، وخراسان بأقطارها ، الى سمرقند من وراء نهر جيحون ، مسيرة زهاء مائة يوم ، حامل علم أو طالبه ، أو متعبد أو زاهد فى زاويته ، الا وكرامته شاملة له ، وسابغة عليه ، وكان الذى يخرج من بيوت أمواله فى هذه الأبواب ستمائة ألف دينار فى كل سنة » .

وذكر الطرطوشى بعد أن تحدث عن هذه النهضة العلمية وآثارها فى تدعيم ملك السلاجقة أن بعض الوشاة وشوا بالوزير نظام الملك عند السلطان ملك شاه ، ليوغروا صدره ضده ، وقالوا : ان هذا المال الوفير الذى يصرف على الفقهاء والعلماء أولى به أن يصرف لتكوين جيش ضخم يهاجم به القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية ويضمها الى ملكه ، وأخذ ملك شاه ببريق هذا الحديث الواشى ، واستدعى اليه وزيره نظام الملك ، ودار بين الرجلين حديث رائع يرويه الطرطوشى معجبا به فى كتابه « سراج الملوك » :

قال ملك شاه لوزيره :

« يا أبت : بلغنى أنك تخرج من بيوت الأموال كل سنة ستمائة ألف دينار الى من لا ينفعنا ولا يغنى عنا ؟ ! » .

فبكى نظام الملك وقال :

« يا بنى : أنا شيخ أعجمى ، لو نودى على فيمن يزيد لم أحفظ خمسة دنانير ، وأنت غلام تركى ، لو نودى عليك عساك تحفظ ثلاثين دينارا ، وأنت مشتغل بلذاتك ، منهمك فى شهواتك ، وأكثر ما يصعد الى الله تعالى معاصيك دون طاعتك .

وجيوشك الذين تعدهم للنوائب اذا احتشـــدوا وكافحوا عنك بسيف طوله ذراعان ، وقوس لا ينتهى مرماه ثلاثمائة ذراع ، وهم مع ذلك مستغرقون فى المعاصى والخمور والملاهى والندماء والطنبور .

وأنا أقمت لك جيشا يسمى جيش الليل ، اذا نامت جيوشك ليلا قامت جيوش الليل على أقدامهم صفوفا بين يدى ربهم ، فأرسلوا دموعهم ، وأطلقوا بالدعاء ألسنتهم ، ومدوا الى الله أكفهم بالدعاء لك ولجيوشك ، فأنت وجيوشك فى خفارتهم تعيشون ، وبدعائهم تبيتون ، وببركاتهم تمطرون وترزقون ، تمرق سهامهم الى السماء السابعة بالدعاء والتضرع » .

قال الطرطوشى معلقا :

« فبكى أبو الفتوح الملك بكاء شديدا ثم قال :

ـ «شاباش يا أبت شاباش !! أكثر من هذا الجيش » .

فنظام الملك كان يرى اذن أن جيش الليل ـ جيش العلمـــاء والفقهاء والصوفية ـ الذى يكونه ويغدق عليه العطاء ، له من الضرورة قدر ما لجيش الدولة الآخر جيش الجنود والقواد ، وأن دعاء جيش العلماء يتعاون مع سهام جيش الجنود فى تدعيم أركان الدولة وتثبيت أركانها .

وأخص ما يذكر به نظام الملك فى التاريخ أنه منشىء المدارس فى العالم الاسلامى ، فقد كانت المساجد الى عصره هى معاهد العلم ، فيها تعقد حلقاته ودروسه ، فكان نظام الملك أول من أنشأ معاهد مستقلة للتعليم ، يتفرغ فيها الطلاب للتعلم والمدرسون للتدريس ، وأوقف الأوقاف الكثيرة ورتب المرتبات الوفيرة للصرف عليها وعليهم ، وأسماها « المدارس » .

وحملت كل مدرسة منها اسمه ، فكانت تسمى « النظامية » ، وكانت أكبرها وأشهرها « المدرسة النظامية » ببغداد التى بنيت

قبيل وصول فقيهنا أبى بكر الطرطوشى الى بغداد بسنوات قليلة ، وقد شهد الطرطوشى نظامية بغداد وهى فى أوج عظمتها ، وتتلمذ بها ، ووصفها ، وذكر قصة بنائها فى نص قيم نادر ، قال :

« ومن مناقب هذا الرجل (نظام الملك) وفضائله أن رجلا قصده يقال له « أبو سعيد الصوفى » فقال له :
ـ « يا خواجا : أنا أبنى لك مدرسة ببغداد مدينة السلام لا يكون فى معمور الأرض مثلها ، يخلد بها ذكرك الى أن تقوم الساعة » .

ـ قال : « افعل » .

وكتب الى وكلائه فى بغداد أن يمكنوه من الأموال .
فابتاع (أبو سعيد الصوفى) قطعة على شاطىء دجلة ، وخط المدرسة النظامية ، وبناها أحسن بنيان ، وكتب عليها اسم نظام الملك ، وبنى حولها أسواقا تكون محبسة عليها ، وابتاع ضياعا وخانات وحمامات وأوقف عليها ، وكان ذلك فى سنى عشر الخمسين وأربعمائة للهجرة » .

٢ ـ أساتذة الطرطوشى فى بغداد :

كان أول من عين للتدريس فى نظامية بغداد أبو نصر عبد السيد ابن محمد بن الصباغ .

ثم تولى منصب التدريس بها عدد من كبار الفقهاء الشافعية ، من أمثال أبى اسحاق الشيرازى ، وأبى سعد عبد الرحمن بن مأمون المتولى ، وأبى بكر محمد بن أحمد الشاشى ، وحجة الاسلام أبى حامد الغزالى .

ورغم أن أبا بكر الطرطوشى كان مالكى المذهب ، فقد تتلمذ على معظم هؤلاء الفقهاء الشافعية ، وعلى بعض فقهاء الحنابلة ، وقد نصت المراجع التى ترجمت له على أسماء هؤلاء الأساتذة الذين

أخذ عنهم الطرطوشي في بغداد ، قال الحميرى فى كتابه « صفة جزيرة الأندلس » :

« وسكن بغداد ، وتفقه على أبى بكر الشاشى ، وسمع بها الحديث » .

وقال ياقوت فى « معجم البلدان » :

« ودخل بغداد والبصرة ، فتفقه عند أبى بكر الشاشي ، وأبى سعد بن المتولى ، وأبى حمد الجرجانى ، أئمة الشافعية ، ولقى القاضى أبا عبد الله الدامغانى .. وسمع ببغداد من أبى محمد التميمى الحنبلى وغيرهم » .

دخل أبو بكر الطرطوشي بغداد اذن وهى تنتغش بالعلماء الأعلام ، وتضج بالنشاط العلمى المتشعب النواحى ، والمدرسة النظامية هى واسطة العقد ومركز هذا النشاط ، وكبار العلماء يتنافسون فى سبيل الوصول الى كرسى الأستاذية بها ، ولكل أستاذ تلاميذه الذين يتعصبون له ، ويفخرون بالتتلمذ عليه .

روى ابن خلكان أن المدرسة النظامية بدىء فى بنائها سنة ٤٥٧ هـ ، وفتحت يوم السبت عاشر ذى القعدة من سنة ٤٥٩ هـ ، وكان نظام الملك قد أصدر أمره بتعيين كبير فقهاء الشافعية فى بغداد أبى اسحاق الشيرازى للتدريس بها ، واجتمع الناس يوم الافتتاح للاستماع الى أول درس يلقيه ، ولكن أبا اسحاق ــ لأمر ما ــ اختفى فى ذلك اليوم ولم يحضر الى المدرسة ، فعين مكانه عالم آخر لا يقل عنه مكانة هو أبو نصر ابن الصباغ ، وبعد أيام ظهر الشيخ أبو اسحاق فى مسجده ، وكان أصحابه وتلاميذه قد آلمهم موقفه كما آلمهم أن يولى منافسه ابن الصباغ للتدريس فى النظامية ، فأعلنوا غضبهم من شيخهم ، وانفضوا عن دروسه احتجاجا ، ثم راسلوه ، وما زالوا به يقنعونه

أن يقبل وظيفة الأستاذية بالنظامية ، وهددوه أن ينفضوا من حوله وينضموا الى ابن الصباغ ان هو أصر على موقفه ، فاضطر أن يذعن لرأيهم ، وقبل المنصب ، وبدأ التدريس فى النظامية ، وعزل ابن الصباغ بعد أن درس عشرين يوما .

كان رجال هذه المدرسة جميعا الذين تعاقبوا على التدريس بها والذين أخذ عنهم الطرطوشى من العلماء البارزين ، تجمع المصادر على وصفهم بالفضل والعلم والتقوى والقدرة على التأليف والانتاج .

وأبو اسحاق الشيرازى عندهم امام وقته ببغداد ، وروى الطرطوشى نفسه شعرا قاله غيره يصف الشيرازى بالذكاء المتوقد . قال ابن خلكان فى « وفيات الأعيان » :

« قال الشيخ أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى :

كان ببغداد شاعر مفلق يقال له عاصم ، فقال يمدح الشيخ أبا اسحاق ـ قدس الله سره :

تراه من الذكاء نحيف جسم
عليه من توقده دليل
اذا كان الفتى ضخم المعالى
فليس يضيره الجسم النحيل

أما أبو بكر الشاشى فتصفه المراجع بأنه كان فخر الاسلام ، فقيه بغداد ، تتلمذ على أبى اسحاق الشيرازى ، ثم انتهت اليه رياسة الطائفة الشافعية ، وله تصانيف حسنة ، وتعين فى الفقه بالعراق بعد أستاذه أبى اسحاق ، وتولى التدريس بالمدرسة النظامية بمدينة بغداد سنة ٥٠٤ هـ .

ووصف أبو نصر بن الصباغ بأنه كان فقيه العراقين فى زمنه ، وكان يضاهى أبا اسحاق الشيرازى ، وكانت الرحلة اليه من البلاد ، وكان ثقة حجة صالحا ، تولى التدريس بالنظامية ببغداد أول ما فتحت ، ولما توفى أبو اسحاق الشيرازى أعيد للتدريس بها .

أما حجة الاسلام أبو حامد الغزالى فيصفه ابن خلكان بقوله :

« لم يكن للطائفة الشافعية آخر عصره مثله » .

والراجح أن الطرطوشى لم يتصل به ولم يأخذ عنه ، فقد عين الغزالى للتدريس فى نظامية بغداد فى سنة ٤٨٤ هـ بعد خروج الطرطوشى منها ، ولكننا سنعرف فيما بعد أن العالمين الكبيرين سيتقابلان معا فى مدينة الاسكندرية ، وستنشأ بينهما خصومة علمية سيكون لها شأنها .

اندمج أبو بكر محمد بن الوليد الطرطوشى فى هذه الحياة العلمية النشيطة ، واستمع الى هذه النخبة الممتازة من العلماء الأجلاء ، ولابد أنه شارك فيها وأسهم فى حلقاتها ، فانه يروى فى بعض كتبه التى ألفها بعد خروجه من العراق شعرا كثيرا سمعه أثناء مقامه فى بغداد والبصرة من بعض هؤلاء الشيوخ ، من أمثال أبى العباس الجرجانى ، وأبى محمد التميمى .

٣ ـ اتجاه الطرطوشى الى التصوف منذ كان فى بغداد :

وهذا الشعر الذى يرويه أبو بكر الطرطوشى يعطينا صورة أخرى لهؤلاء العلماء الذين أخذ عنهم ، فهم كانوا فى جملتهم ـ مع تضلعهم فى الفقه والعلوم الدينية ـ من المتصوفة الذين يعتقدون أن الحياة الدنيا نعيم زائل ، والذين كانوا يفرغون لحياة كلها زهد وتقشف وعبادة وذكر لله ، وسنرى فيما بعد أن هذا النوع من الحياة الذى شاهده الطرطوشى فى بغداد قد أثر فيه تأثيرا كبيرا ، فبدأ منذ ذلك الحين يأخذ نفسه به ، حتى عده من كتبوا عنه واحدا من المتصوفة الزاهدين .

كان هذا الشعر الذى سمعه من شيوخه العراقيين ، ورواه عنهم فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » يضرب كله المثل بالأمم الغابرة ، وما بنت من قصور ، ومازينت من عمائر ، وكيف انتهى

كل هذا الزخرف الى زوال ، ويدعو الى اتخاذ الموعظة من هذا كله ، فهو يقول :

« انشدنى القاضى أبو العباس الجرجانى ــ رحمه الله ــ بالبصرة :

بالله ربـــك كم قصر مـــررت به
قد كان يعمر باللذات والطــرب ؟ !
طارت عقاب المنـــايا فى جوانبه ،
فصاح من بعده بالويل والحـــــرب

وأنشدنى أيضا :

أيها الـــرافع البنـــاء رويدا ،
لن تذود المنـــــون عنك المبـــانى
ان هـــذا البنـــاء يبقى ، وتفنى ،
كل شىء أبقى من الانســــــــان

وأنشدنى بالبصرة :

ان كنت تسمو الى الدنيا وزينتها ،
فانظر الى ملك الأمـــــلاك قارون
زم الأمـــــور فأعطته مقادتهـــــا ،
وسخر الناس بالتشـــــديد واللين
حتى اذا ظن أن لا شىء غالبــــــه
ومكنت قدمــــــــــاه أى تمكين
راحت عليه المنـــايا روحة تركت
ذا الملك والعز تحت المـــاء والطين

وروى الطرطوشى كذلك أن شيخه أبا محمد التميمى انشده ببغداد :

لمن أبنى ؟ لمن أسم المطـــــايا ؟

لمن أستأنف الشيء الجـــــديدا

اذا ما صــــار اخـوانى رفاتا ،

وصرت ــ لفقدهم ــ فردا وحيــدا

أعاين معشرا لهم شـــــكول ،

وأشـــــكالى قد اعتنقوا اللحودا

وقد روى الطرطوشي فى كتابه « سراج الملوك » حديثا آخر جرى بينه وبين أحد العراقيين يدل دلالة واضحة على أن هذه الموضوعات بالذات كانت مجال المناقشة دائما بينه وبين أنداده من علماء العراق : موضوعات الحياة الدنيا وقيمتها وزوالها ، والانسان وجهوده ومصيره ، والعبرة المأخوذة من هذا كله .

يروى الطرطوشي طرفا من احدى هذه المناقشات فيقول :

« وها أنا (ذا) أحكى لك أمرا أصابنى ، طيش عقلى وبلبل فكرى ، وقطع نياط قلبى ، فلا يزال يراه حتى يوارينى التراب ، وذلك أنى كنت يوما بالعراق وأنا أشرب ماء ، فقال لى صاحب لى ــ وكان له عقل :

ــ يا فلان : لعل هذا الكوز الذى تشرب فيه الماء قد كان انسانا يوما من الدهر ، فمات فصار ترابا ، فاتفق للفخارى أن أخذ تراب القبر وضربه خزفا ، وشواه بالنار ، فانتظم كوزا كما ترى ، وصار آنيـة يمتهن ويستخدم بعد أن كان بشرا سويا يأكل ويشرب ، وينعم ويلذ ويطرب » .

هذه النظرة الفلسفية العميقة الى الانسان وحقيقته ومصيره :

كيف خلق ومم خلق ؟

وكيف ينتهى والى أين يصير ؟

وكيف تنتهى الحياة الى الموت ؟
ثم كيف تتجدد الحياة من الفناء .

هذه النظرة الفلسفية هزت كيان الطرطوشى هزا ، أو على حد قوله هو : « طيشت عقلى وبلبلت فكرى وقطعت نياط قلبى » ، وأدرك ما وراء هذه اللفتة من حقيقة ، فاستطرد فى حديثه يؤكدها ويحللها تحليلا يؤكد ايمانه بها ، قال :

« فاذا الذى قاله من الجائزات ، فان الانسان اذا مات عاد ترابا كما كان فى النشأة الأولى ، ثم قد يتفق أن يحفر لحده ويعجن بالماء ترابه ، فيتخذ منه آنية ، فتمتهن فى البيوت ، أو لبنة فتبنى فى الجدار ، وقد يجوز أن يغرس عند قبره شجرة فيستحيل تراب الانسان شجرة وورقا وثمرة ، فترعى البهائم أوراقها ، ويأكل الانسان ثمرها ، فينبت منها لحمه ، وينشر منها عظمه ، أو تأكل تلك الثمرة الحشرات والبهائم ، فبينما كان يقتات صار قوتا ، وبينما كان يأكل صار مأكولا ، ثم يعود فى بطن الانسان رجيعا فيقذف فى بيت الرحاضة ، أو بعرا ينبذ بالعراء ، ويجوز اذا حفر قبره أن تسفى الرياح ترابه ، فتتفرق أجزاؤه فى بطون الأودية والتلول والوهاد » .

هذا الحديث الذى ألقى الى الطرطوشى أثناء مقامه فى بغداد ، وهذا التعليق الذى راح يحلل به الحديث ويؤكده فى كتابه « سراج الملوك » يذكرنا بقول الشاعر العربى أبى العلاء المعرى :

سر ان استطعت فى الفضـــاء رويدا
لا اختيـــالا على رفات العبـــاد
خففت الوطأ ما أظـن أديم الأر
ض الا من هـــذه الأجســـاد

ويذكرنا بشاعر فارسى مجيد يدور كثير من شعره حول هذه

المعانى بالذات : تجدد الحياة ، وخروج الميت من الحى ، وانبثاق الحى من الميت .

يذكرنا بالشاعر عمر الخيام ، فهو الذى يقول فى « رباعياته » :

قد كان هـــذا الدن صبا أســـير
مثلى ، ســـبته مسدلات الشـــعور
وما يــــد الابريق الا يـــــد
قد طوقت جيـــد حبيب عزيز

وهو الذى يقول ـ ويكاد يحيل قول البغدادى للطرطوشى شعرا :

رأيت خزافا رحـــــاه تدور ،
يجد فى صـــوغ دنان الخمـــور
كأنه يخلط فى طينهـــــــا
جمجمة (الشـــاه) بساق الفقير

ومن العجيب أن الخيام كان معاصرا للطرطوشى ، ترى هل سمع شعره هذا أو نقل اليه أثناء مقامه فى بغداد ، فتأثر به ، وبان هذا الأثر فيما كتبه فيما بعد فى كتابه « سراج الملوك » .

هـــذا سؤال افتراضى أوحى به التشابه الغريب بين كلام الطرطوشى وشعر الخيام ، ولا نستطيع الاجابة عليه الآن لقلة النصوص التى تمدنا بها المراجع ، ولأن المعروف عن حياة الخيام ما زال قليلا غير واضح المعالم .

انطلق اذن أبو بكر الطرطوشى يفكر فى هذه اللفتة الفلسفية فيطيل التفكير ، ويحلل فيطيل التحليل ، وراح يعـــرض كل الاحتمالات الممكنة التى قد ينتهى اليها الانسان بعد موته ، وراح يكون لنفسه فلسفة خاصة ، بدأ يعتنقها منذ ذلك الحين ، ويصيغ حياته صياغة خاصة تتفق وهذه الفلسفة ، وهى فلسفة الزهد ، والعزوف عن اللذات والشهوات ، والجرأة على كل كبير فى سبيل الحق ، وفى سبيل تدعيم أوامر الله سبحانه وتعالى ، فهو ينظر الى كل كبير بهذه النظرة التى لا ترى فيه قوته وسلطانه وجبروته ،

ولكنها ترى فيه قيمته ومصيره ، وأنه لن يكون بعد الموت الا كوزا يشرب فيه الماء ، أو ما يشبه ذلك .

تبدو فلسفته هذه واضحة فى الفقرة التى ختم بها حديثه السالف حيث يقول :

« أليس فى هذا ما أذهل العقول وطيش الحلوم ومنع اللذات ، وهان عنده مفارقة الأهلين والمال ، واللحوق بقلل الجبال ، والأنس بالوحوش حتى يأتى أمر الله ؟

أليس فى هذا ما صغر الدنيا وما فيها ؟

أليس فى هذا ما حقر الملك عند من يعظمه ، والمال عند من جمعه ؟

أليس فى هذا ما زهد فى اللذات وسلى عن الشهوات ؟ » .

سيلتزم الطرطوشى اذن ـ منذ يغادر العراق وفيما يقبل من أيامه ـ حياة الزهد والبعد عن مباهج الدنيا ، سيلتزم الزهد لا عبادة وانما تفلسفا .

وقد زار الطرطوشى ـ أثناء مقامه فى العراق ـ مدينة البصرة ، وقضى فيها وقتا ، وتتلمذ هناك على أبى على محمد بن أحمد التسترى ، ثم يمم وجهه شطر قطر آخر هو الشام .

ولسنا نعلم على وجه التحديد كم سنة أقام الطرطوشى فى العراق ، ولكننا نستطيع أن نستنتج أنه لم يقم به طويلا ، فنحن نعرف أن عددا كبيرا من شيوخه فى العراق توفوا فى المدة بين سنتى ٤٧٨ و ٤٧٩ هـ .

فأبو سعد المتولى ، وأبو عبد الله الدامغانى توفيا سنة ٤٧٨ هـ .
وأبو على التسترى توفى سنة ٤٧٩ هـ .

والطرطوشى بدأ رحلته من المغرب سنة ٤٧٦ هـ .

فلابد اذن أنه وصل العراق فى أواخر سنة ٤٧٧ هـ أو أوائل سنة ٤٧٨ هـ ، وأنه غادرها سنة ٤٧٩ هـ أو سنة ٤٨٠ هـ ، وقد بلغ الثلاثين من عمره .

(ج) فى الشام

١ ــ فى بيت المقدس وجبل لبنان :

دخل أبو بكر الطرطوشى الشام بعد أن أتم دراسته ، وبعد أن حصل من العلوم ما حصل ، وبعد أن بلغ من النضج الفكرى درجة تؤهله للتدريس لينفع الناس بعلمه ، وبعد أن كون لنفسه فلسفة خاصة قوامها الزهد والسعى للأمر بالمعروف والنهى عن المنكر :

فالسمة الظاهرة التى تميز أبا بكر الطرطوشى منذ دخل الشام الى آخر حياته أنه عالم زاهد ، بل لعله أقرب الى الحقيقة أن نقول زاهد عالم ، فان ابن فرحون يروى فى كتابه « الديباج المذهب » أن بعض الجلة من الصالحين كان يقول :

« الذى عند أبى بكر الطرطوشى من العلم هو الذى عند الناس ، والذى عنده مما ليس مثله عند غيره دينه » .

وقال الحميرى فى كتابه « صفة جزيرة الأندلس » :
« وزهده أكثر من علمه » .

والذى تجمع عليه المراجع التى ترجمت له أنه قضى الفترة التى عاشها فى الشام يعلم الناس ، فأقبلوا عليه ، وأحبوه ، وافادوا من علمه ، فعلا اسمه ، وبعد صيته ، وأنه عاش هناك متقشفا عابدا زاهدا منقبضا عن الناس ، اذا أكل أكل فى شقف من الفخار ، وكان أصحاب الحكم والسلطان يسعون اليه والى بره ، ولكنه كان ينصرف عنهم ، ويشتد عليهم فى القول واسداء النصيحة .

قال ابن فرحون :

« وسكن الشام مدة ودرس بها ، ولازم الانقباض والجماعة وبعد صيته هناك ، وأخذ عنه الناس هناك علما كثيرا ، وكان اماما عالما عاملا زاهدا ، ورعا دينا متواضعا متقشفا ، متقللا من الدنيا راضيا باليسير منها ، وتقدم فى الفقه مذهبا وخلافا ..

وكان له ــ رحمه الله تعالى ــ نفس أبية ، قيل انه كان ببيت المقـــدس يطبخ فى شقف ، وكان مجانبا للسلطان معرضا عنه وعن أصحابه ، شديدا عليهم مع مبالغتهم فى بره » .

ووصفه القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله المعافرى بالفضل والعلم والزهد فى الدنيا ، وروى عنه أنه كان يقول :

« اذا عرض لك أمران : أمر دنيا وأخرى ، فبادر بأمر الأخرى يحصل لك أمر الدنيا والأخرى » .

ويبدو أن نفسه الأبية وصراحته والتزامه القول الحق أثارت ضده بعض الشانئين والحاسدين من أهالى بيت المقدس ، فسعوا به لدى حاكمها ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينالوا منه ، واستدعاه الحاكم اليه ، فلم يأبه لدعوته ، ورفض أن يذهب ، قال ياقوت فى ترجمته له :

« وكانت له نفس أبية ، وكان ببيت المقدس يطبخ فى شقف ، وكان مجانبا للسلطان ، استدعاه فلم يجبه ، وراموا الغض من حاله فلم ينقصوه قلامة ظفر » .

والطرطوشى الذى كان يجانب السلطان وينأى عنه كان يقوم الليل متعبدا أثناء مقامه فى بيت المقدس ، يشجيه الصوت يسمعه فى هدوء الليل يناجى الله ويلوم النفس والقلب ان أغفيا أو توانيا

عن ذكر الله ، يروى الطرطوشى عن نفسه أنه كان نائما فى بيت المقدس ، فسمع صوتا حزينا ينشد :

أخـــوف ونوم ؟ ! ان ذا لعجيب !
ثكلتـــك من قلب ، فأنت كذوب

أما وجلال الله ، لو كنت صـــــادقا
لما كان للاغمـــاض منك نصـــيب

يقول الطرطوشى ــ رحمه الله ــ : « فأيقظ الصـــوت النوام وأبكى العيون » .

ويذكر الضبى فى « بغية الملتمس » ان من بين الدوافع التى دفعت الطرطوشى لزيارة بيت المقدس رغبته فى مقابلة أبى حامد الغزالى ، فقد فاتته رؤيته فى بغداد ــ كما سبق أن أشرنا ــ ، لأن الطرطوشى ترك بغداد حوالى سنة ٤٨٠ هـ قبل أن يصلها الغزالى وقبل أن يعين مدرســـا بالنظامية ، فقد عين بها فى سنة ٤٨٤ هـ .

وكان الغزالى فى هذه الفترة يعانى من محنته النفسية ، ويقضى وقته ــ سواء فى دمشق أو فى بيت المقدس ــ منعزلا عن الناس فى مئذنة الجامع الأموى بدمشق أو فى قلل الجبال يتعبد وحده ، ويحاول أن يصل الى الحقيقة عن طريق التصوف والذوق وذكر الله بعد أن عجز عن الوصول اليها عن طريق العقل والفلسفة وآراء الفقهاء وأصحاب الملل والنحل المختلفة .

يقول الغزالى نفسه فى كتابه « المنقذ من الضلال » يصف تجربته وأحواله أثناء مقامه فى الشام :

« دخلت الشام وأقمت بها قريبا من سنتين ، لا شغل لى الا العزلة والخلوة والرياضة والمجاهدة ، اشتغالا بتزكية النفس وتهذيب الأخلاق وتصفية القلب لذكر الله ، كما كنت حصلته من علم الصوفية ، فكنت

أعتكف مدة فى مسجد دمشق ، أصعد منارة المسجد طول النهار ، وأغلق بابها على نفسى .. الخ » .

وقد شاهده فى هذه الفترة القاضى الاشبيلى أبو بكر بن العربى ـ تلميذ الطرطوشى ـ ووصف أحواله وتجواله فى البرية ، وجرت بينه وبينه مناقشة ، قال ابن العربى :

« رأيت الامام الغزالى فى البرية وعليه مرقعة ، وعلى عاتقه ركوة ، وقد كنت رأيته ببغداد يحضر دروسه أربعمائة عمامة من أكابر الناس وأفاضلهم يأخذون عنه العلم .

قال : فدنوت منه ، وسلمت عليه ، وقلت له : يا امام أليس تدريس العلم ببغداد خيرا لك من هذا ؟ !
قال : فنظر الى شذرا وقال :

« لما طلع بدر السعادة فى فلك الارادة ، وجنحت شمس الوصال فى مغارب الوصول :

تركت هوى ليلى وسعدى بمعزل ،
وعدت الى مصحوب أول منزل
ونادت بى الأشواق : مهلا ، فهذه
منازل من تهوى ، رويدك فانزل
غزلت لهم غزلا رقيقا ، فلم اجد
لغزلى نساجا ، فكسرت مغزلى

هذه كانت أحوال الغزالى عندما فكر الطرطوشى فى رؤيته ومقابلته ، ولهذا لم يكد يعلم بمقصد الطرطوشى ووصوله الى بيت المقدس حتى بعد وترك المدينة ، ولم يمكنه من مقابلته ، هكذا ذكر الضبى تلميذ أبى بكر بن العربى (وهذا الأخير تلميذ الطرطوشى) ، قال فى كتابه « بغية الملتمس » :

« ثم انصرف (أى الطرطوشى) يريد مصر ، وكان له غرض فى الاجتماع مع أبى حامد الغزالى ، فجعل طريقه على بيت المقدس ، فلما تحقق أبو حامد أنه يؤمه ، حاد عنه ، ووصل الحافظ أبو بكر فلم يجده » .

وأقام الطرطوشى مدة فى بيت المقدس - كما أسلفنا - ، ثم تركها الى جبل لبنان فقضى به مدة أخرى ، يقول الضبى مستأنفا حديثه :

« فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة » .

٢ - فى أنطاكية :

ولسنا نعرف أى المدن الشامية زار الطرطوشى - غير بيت المقدس وجبل لبنان - ولكن من المرجح أنه زار دمشق وأقام بها ، وأنه طوف فى معظم مدن الشام الأخرى ، وأنه ذهب فى تطوافه الى أقصى الشمال ، فزار حلب ، ثم انحدر منها الى أنطاكية ، فهو يروى فى كتابه « سراج الملوك » حادثة حدثت له ، يفهم منها أنه زار أنطاكية ، فيقول :

« كانت معى نفقة وافرة فى هميان على وسطى ، وكنت أسمع المسافرين يقولون : من نام بالليل فى الفيافى وله نفقة على وسطه فليحلها ، فان اللصوص اذا كابدت الخلق يبتدرون أوساطهم » .

فخرجت من بلاد السويدية الى أنطاكية - وهى اذ ذاك حرب للروم - ، فسرينا ليلتنا وأصبحنا فى باب أنطاكية ، فأخذتنى عينى ، وحالت الهميان ، ونمت ، ولم أستيقظ الا ضحوة النهار ؛ فاستيقظت ومددت يدى الى الهميان فلم أجده ، فجعلت أنظر الى القافلة ، والتفت الى الناس ، وقد أسقط فى يدى ولم يبق لى حيلة .

فاسترجعت ورفعت أمرى الى الله تعالى ، واذا رجل من أهل القافلة متلفتا الى ، فوقع وجهى فى وجهه ، فاذا هو يضحك لما رأى ما بى ، فقال :

ـ « مالك أيها الفقيه ؟ » .

قلت : « خير » .

فقام الى وقال :

ـ « خذ همیانك عافاك الله » .

فسألته كيف ظفر به ؟

فقال : « رأسك قد تدحرج ذراعين أو ثلاثة » .

والتفت فرأيت سوادا فى الموضع الذى كنت فيه نائما ، فسرت اليه وأخذته ، فاذا هو الهميان .

رحمة الله ورضوانه عليه » .

وقد نستنتج من هذا النص شيئا آخر هاما ، وهو ان الطرطوشى كان فى أنطاكية فى أواخر سنة ٤٩٠ هـ ، فهو يقول عند ذكره لها : « وهى اذ ذاك حرب للروم » ، وهو يقصد بالروم هنا الصليبيين ، فان الحملة الصليبية الأولى وفدت الى الشرق فى سنة ٤٩٠ هـ ، واستولت على مدن الشام الشمالية الواحدة بعد الأخرى ، وظلت تحاصر مدينـــة أنطاكية نحو ثمانية شـــهور الى أن سقطت فى جمادى الأولى سنة ٤٩١ هـ .

وأغلب الظن أن هذا الحادث الخطير واستيلاء الصليبيين على سواحل الشام كلها وبيت المقدس فى نفس السنة هو الذى دفع الطرطوشى دفعا الى ترك الشام ، وأنه غادرها منذ ذلك الحين ، واتجه الى مصر ، ونزل أول ما نزل فى مدينة رشيد ثم غادرها الى مدينة الاسكندرية حيث اتخذها مقرا له .

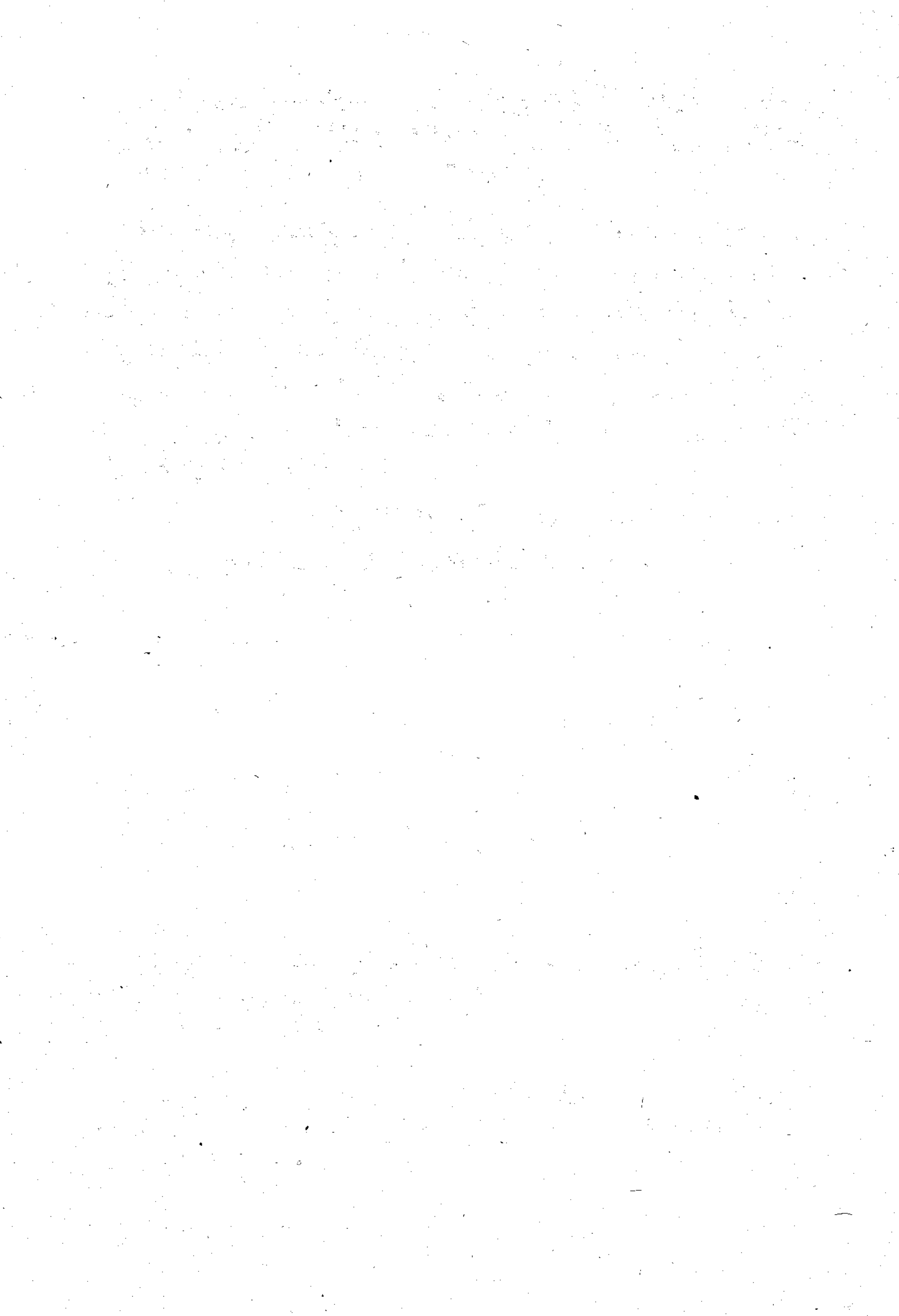
ومما يقوى استنتاجنا (١) أن المراجع تذكر أن الطرطوشى وصل مصر والوزير بها هو الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والأفضل ولى الوزارة بعد وفاة ابيه فى سنة ٤٨٧ هـ .

فاذا صح استنتاجنا يكون الطرطوشى قد وصل الى الشام حوالى سنة ٤٨٠ هـ ، وهو فى الثلاثين من عمره ، وغادرها حوالى سنة ٤٩٠ هـ ، وهو فى الأربعين من عمره ، بعد أن قضى فيه عشر سنوات يطوف فى مدنه الكبرى ، ويستزيد من التحصيل ، ويشتغل معظم وقته بالعبادة وذكر الله وبالتدريس حتى أصبح له تلاميذ كثيرون يعجبون به وبعلمه ، ويتسابقون الى حلقات دروسه ، فقد قال ياقوت فى ترجمته له :

« وسكن الشام مدة ، ودرس بها ، وبعد صيته ، وأخذ عنه الناس هناك علما كثيرا » .

---

(١) ويؤكد هذا الاستنتاج كذلك أن المؤرخ الأندلسى ابن خير ذكر فى كتابه « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » ص ٥٩ أنه قرأ على القاضى أبى بكر محمد بن عبد الله بن العربى كتاب « مختصر تفسير الثعالبى » الذى ألفه أبو بكر الطرطوشى ، وأن ابن العربى ذكر أنه استمع لأستاذه الطرطوشى وهو يدرس هذا الكتاب فى رمضان سنة ٤٨٧ هـ فى « مهد عيسى بالفسيفساء من المسجد الأقصى » . فكأن الطرطوشى كان مقيما يدرس فى بيت المقدس الى أواخر سنة ٤٨٧ هـ .



البَاب الثالث

الطرطوشى فى مصر

١ ــ الاسكندرية الرباط وباب المغرب .

٢ ــ فى مدينة رشيد أولا .

٣ ــ الطرطوشى يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية .

٤ ــ موعظة الطرطوشى للوزير الأفضل شاهنشاه .

٥ ــ الطرطوشى وابن حديد ــ قاضى الاسكندرية .

٦ ــ الأفضل يستدعى الطرطوشى ويحدد اقامته فى جامع الرصد بالفسطاط .

٧ ــ الطرطوشى والوزير المأمون البطائحى .

الطرطوشى فى مصر

١ ـ الاسكندرية الرباط وباب المغرب :

كان لموقع مدينة الاسكندرية الجغرافى أثر كبير فى توثيق العلاقات بينها وبين المغرب والأندلس ، فالاسكندرية كانت ثغرا من الثغور الاسلامية الهامة ، وكانت رباطا كبيرا ترابط فيها ـ منذ دخلها المسلمون ـ حامية مسلحة كبيرة ، فقد خصص عمرو بن العاص ربع جيشه لرباط الاسكندرية ، يقيمون بها ستة أشهر ، ثم يستبدلون بربع آخر .

وكان عمر بن الخطاب يرسل كل سنة غازية من أهل المدينة ترابط فى الاسكندرية ، وذلك لأن العرب لم يكونوا يأمنون عليها من غارات العدو بعد أن نقض الروم الصلح مرتين ، وحاولوا الهجوم عليها واستردادها .

وكتب عثمان بن عفان الى عبد الله بن سعد بن أبى السرح ـ بعد نقض الروم :

« قد علمت كيف كان هم أمير المؤمنين بالاسكندرية ، وقد نقضت الروم مرتين ، فألزم الاسكندرية رابطتها ، ثم أجر عليهم أرزاقهم ، واعقب منهم فى كل ستة أشهر » .

وقد بلغت رابطة الاسكندرية فى عهد معاوية بن أبى سفيان سبعة وعشرين ألف جندى ، منهم عشرة آلاف من أهل الشام ، وخمسة آلاف من أهل المدينة .

ومن الأقوال المأثورة :

« أربعة أبواب من الجنة مفتحة فى الدنيا : الاسكندرية ، وعسقلان ، وقزوين ، وجدة » .

ومنها : أن الاسكندرية « كنانة الله ، يحمل فيها خير سهامه » .
وقال عبد الله بن مرزوق الصدفى :

« لما نعى الى ابن عمى خالد بن يزيد ـ وكان توفى بالاسكندرية ـ لقينى موسى بن على بن رباح ، وعبد الله ابن لهيعة ، والليث بن سعد متفرقين ، وكلهم يقولون : أليس مات بالاسكندرية ؟ فأقول : بلى ، فيقولون : هو حى عند الله يرزق ويجرى عليه أجر رباطه ما قامت الدنيا ، وله أجر شهيد حتى يحشر على ذلك » .

فالمسلمون الأول كانوا يعتقدون أن الاقامة فى الرباطات والحياة فى الثغور نوع من الجهاد ، ومن يموت أثناء مقامه بها فهو شهيد ، ولهذا جذبت الاسكندرية اليها فى العصور الاسلامية الأولى عددا كبيرا من المسلمين ، ومن العلماء بوجه خاص ، ومن علماء المغرب والأندلس بوجه أخص .

كما أن مسلمي المغرب والأندلس كانت تتطلع نفوسهم وتهفو أرواحهم دائما الى المشرق منبت الدعوة الاسلامية ، ومقر البلدان المقدسة : مكة والمدينة وبيت المقدس ، وموطن العلم الاسلامى ، ودار العلماء والمعاهد العلمية المختلفة ، فهم كانوا في شوق دائم الى الرحلة الى هذا المشرق ، وهدفهم الأول أداء الفريضة والحج الى بيت الله الحرام وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، والالمام بالمساجد ومعاهد العلم ، ومقابلة العلماء والأخذ عنهم .

وكان المحط الأول لرحلتهم المشرقية هو مدينـــة الاسكندرية ـ الرباط والثغر الاسلامى الكبير ـ ، يصلون اليها بعد رحلة طويلة شاقة مضنية عبر الصحراء حينا ، وعلى ظهور السفن حينا آخر .
وهم كانوا اذا وصـــلوها أقاموا فيها فأطالوا الاقامة ، طلبا للراحة من عناء السفر ، ولزيارة معالمها التاريخية التى كانت تبهر أنظارهم وقتذاك ، مثل المنارة ـ احدى عجائب الدنيا ـ ، وعمود السوارى ، والمسلات ، والقصور ، والكنائس القديمة ، والأسوار

الشاهقة ، وما يتخللها من أبراج وحصون وأبواب ، وأخيرا المساجد التى بنيت فى العصر الاسلامى الأول لتكون معابد يذكر فيها اسم الله كثيرا ، ومدارس لنشر العلم .

وكان هؤلاء المغاربة والأندلسيون يستأنفون رحلتهم بعد ذلك فيؤدون الفريضة ، وقد تشوق البعض منهم الرحلة ومباهجها ، فيتنقلون فى مدن الشرق وأمصاره الكبرى (مثل بغداد ودمشق وحلب والموصـــل وبيت المقدس وغيرها) لزيارتها والافادة من علمائها ، ثم يعودون بعد هذه الرحـــلة الطويلة الى الاسكندرية ليســـتأنفوا منها طريق العـــودة الى بلادهم ، ولكن كثيرين منهم — وخاصة العلماء وطلاب العلم — كانوا يؤثرون البقاء فى الاسكندرية واتخاذها وطنا ودار اقامة ، لينالوا شرف المقام فى هذا الثغر والرباط العظيم ، وليستزيدوا من علم يطلبونه ، أو لينشروا علما حصلوه وأتقنوه .

وقد زادت صلة الاسكندرية بالمغرب توثقا منذ أتى الفاطميون بجيوشهم من المغرب وفتحوا مصر واتخذوها مقر خلافة ، فقـد أصبح المغرب منذ ذلك الفتح ولاية تابعة لمصر الفاطمية ، ونتيجة لهذا كثرت رحلات المغاربة والأندلسيين الى مصر ، والى الاسكندرية بوجه خاص .

ورغم أن المذهب الرسمى للدولة فى العصر الفاطمى كان هو المذهب الشيعى ، ورغم أن الدولة بذلت جهودا كبيرة لنشر هذا المذهب بين المصريين جميعا ، فقد ظلت الاسكندرية مدينة سنية ، وكان المذهب المنتشر بين السكندريين والمعمول به بينهم هو مذهب الامام مالك ، وكذلك انتشر هذا المذهب فى المغرب وبين المغاربة .

ومن كبار هؤلاء العلماء المالكية الذين رحلوا من المغرب والأندلس الى المشرق ثم اتجهوا الى الاسكندرية واستقروا بها فى القرن الخامس الهجرى — أى من العصر الفاطمى — واتخذوها وطنا ودار مقام لهم فقيهنا وعالمنا الصوفى الكبير أبو بكر الطرطوشى .

٢ ـ فى مدينة رشيد أولا :

عرفنا من قبــل أن فقيهنا أبا بكر الطرطوشى اتخذ سمت المتصوفة منذ كان يقيم فى بغداد ، وأنه أقبل على حياة كلها زهد وتقشف وعبادة وذكر لله حتى وصفه من ترجموا له بأنه عــالم متصوف .

ولهذا نراه يقبل ـ أثناء مقامه فى الشام ـ على هذا النوع من الحياة ، ويحاول أن يتعرف على أنداده من الزاهدين العابدين ، فممن تعرف اليهم أثناء مقامه فى جبل لبنان رجل من الزهاد يسمى عبد الله السايح ، قال الضبى :

« فقصد جبل لبنان وأقام هناك مدة وصحب به رجلا يعرف بعبد الله السايح من أولياء الله المنقطعين الى الله تعالى » .

ويبدو أن الطرطوشى كان يعتز بصداقة هذا المتعبد الزاهد وأنه عقد النية على مصاحبته ، فانه بعد أن ضاق بالمقام فى الشام اثر استيلاء الصليبيين على معظم مدنها ، وعقد النية على الرحيل الى مصر عرض على صفيه وصديقه الشيخ عبد الله السايح أن يرحل معه ، ولكن الشيخ رفض واحتج بأنه يعيش حيث يعيش فى المباح من ثمر الأشجار ويأكل من الحلال وبذلك يتمكن من التفرغ للعبادة ، ولا يضمن أن يجد مكانا آخر تتوفر فيه هذه الشروط ، قال الضبى :

« ثم أراد الحافظ أبو بكر أن يقصد مصر ، فعرض على أبى محمد السايح صحبته والمشى معه ، وقال له : أنت ها هنا بمعزل ولا تلقى أحدا ولا يلقاك ، وان مت لم تجد من يواريك ؛ وفى مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم وحضور الجماعة فى الجمعة ما لا يخفى عليك ، فقال له عبد الله : أنا ها هنا آكل الحلال ، وأعيش فى

المباح — دون تكلف (١) — من ثمر هذه الأشجار ،
ولا أجد فى غير هذا الموضع من المباح ما أجد فيه » .

فالطرطوشى يلتزم بما يلتزم به المتصوفة من اقبال على الزهد والتقشف والعبادة وذكر الله ، ولكنه لا يؤمن بما يؤمن به بعضهم من العزلة والبعد عن الناس بل هو يرى أن الخير كل الخير فى مخالطة الناس ومقابلتهم ونشر العلم لهذا لم يزل بصديقه السايح يحاوره ويحاول أن يقنعه بالرحلة معه الى مصر ، فقال له انه يعلم أن بمصر مدينة تسمى رشيد فيه من المباح الذى ينشد الملح والحطب ، وأنهما يستطيعان أن يجمعا من هذين المباحين ما يمكنهما من العيش .

وكان الشيخ عبد الله يعلم أن صديقه الطرطوشى رجل فقيه يشتغل بالتدريس ويحب أن ينفع الناس بعلمه ، والناس تقبل دائما عليه ، فأعلن لصديقه خوفه أن يدفعه هذا النوع من الحياة الى البعد عنه ومفارقته ، ويكون بذلك قد تجشم مشقة الانتقال من لبنان الى مصر دون مبرر ، ولكن الطرطوشى طمأنه وعاهده على أن لا يفارقه أبدا ، روى هذا الحوار الضبى فى ترجمته للطرطوشى ، قال :

« فقال له الحافظ أبو بكر : ان بقطر (٢) مصر
موضعا يعرف برشيد ، فيه شيئان مباحان : الملح
والحطب ، نقيم به ويكون عيشنا من هذين المباحين .
فقال له عبد الله : أنت لا يتركك الناس ، وأفارق

---

(١) الأصل : تقلف .

(٢) فى الأصل : « أن تنظر مصر » ولا معنى لها ، وما أثبتناه قراءة ترجيحية يستقيم بها المعنى .

موضـــعى (ثم تفارقنى) (١) وأفارقك ، فعاهده أن لا يفارقه .

وركبا الطريق الى مصر حتى وصلا الى رشيد ، وأقاما هناك اذا احتاجا الى قوت جمعا (٢) من حطب أو ملح فباعا ما يحملانه من ذلك على ظهورهما وتقوتا بثمنه » .

٣ ـ الطرطوشى يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية :

كانت الاسكندرية ـ عند وصـــول الطرطوشى بها ـ وشيكة الخروج من أزمة بل أزمات خطيرة ، بدأت بالمجاعة الكبرى التى حدثت فى عهد الخليفة المستنصر نتيجة لقصور فيضان النيل لمدة سبع سنوات ، فاشتد الغلاء ، وعدمت الغلال ، وانتشر الوباء حتى عم مصر كلها ، وضاعت هيبة الخليفة والدولة ، وانتشرت الفتن فى أنحاء مصر ، فاستعان الخليفة المستنصر بواليـــه على عكا أمير الجيوش بدر الجمالى ، فاستدعاه اليه ، وعينه وزيرا ، وعهد اليه بمعالجة الأزمة والقضاء على المشاغبين ومثيرى الفتن .

وبدأ بدر الجمالى فى سنة ٤٦٧ هـ بالبلاد الواقعة شرقى فرع دمياط ، وتتبع المفسدين وقضى عليهم ، ثم انتقل الى البحيرة والاسكندرية ، وكانت طائفة « الملحية » ـ وهى احدى طوائف الجيش الفاطمى ـ قد أثارت الفتنة فى المدينة ، وأعلنت العصيان ، فحاصر بدر الجمالى الاسكندرية أياما الى أن استولى عليها عنوة وقتل من « الملحية » عدة كثيرة .

وفى سنة ٤٧٧ هـ ـ أى قبل وصول الطرطوشى الى الاسكندرية بنحو ثلاثة عشر عاما ـ خرج على بدر الجمالى ابنه الأوحد ، وانضم اليه جماعة من العسكر والعربان ، ولجأ الى مدينة الاسكندرية

---

(١) أضفنا هاتين الكلمتين ليتضح المعنى .

(٢) الأصل : « حوجا » .

وتحصن بها ، فسار اليه أبوه ، وحاصره مدة ، وألح عليه بالقتال حتى هزمه ودخل المدينة .

وعند موت الخليفة المستنصر فى سنة ٤٨٧ هـ ـ أى قبل وصول الطرطوشى بنحو ثلاث سنوات ـ بادر وزيره الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى فأجلس أبا القاسم أحمد ـ أصغر أولاد المستنصر ـ على عرش الخلافة ، فغضب الابن الأكبر نزار وفر الى الاسكندرية وفى صحبته ابن مصال أحد قواد الدولة .

وفى الاسكندرية اتصل نزار بالأمير أفتكين ـ والى المدينة ـ ووعده أن يوليه الوزارة ان هو وقف الى جانبه ، فاستجاب أفتكين لدعوته ، وأقنع سكان الاسكندرية بمبايعته ، ولقبه بالمصطفى لدين الله .

وخرج الوزير الأفضل شاهنشاه بجيش من القاهرة ، واتجه الى الاسكندرية ، وجرت بين الفريقين حروب انتصر فيها نزار ، وعاد الأفضل الى القاهرة ، وقوى أمر نزار ، واستولى على بلاد الوجه البحرى .

ولكن الأفضل جهز جيشا جديدا ، وحاصر الاسكندرية حصارا شديدا ، فاشتد الضيق بنزار وصحبه ، فجمع ابن مصال ماله وفر فى البحر الى بلاد المغرب ، ففت ذلك فى عضد نزار ، وانتهى الأمر بهزيمته ، ودخل الأفضل الاسكندرية ، وقبض على نزار ، وأرسله الى القاهرة حيث قتله بها ، واستقر أبو القاسم أحمد خليفة ولقب بالمستعلى بالله ، وانقسمت الشيعة الاسماعيلية منذ ذلك الوقت الى فرقتين :

ـ الاسماعيلية النزارية ، والاسماعيلية المستعلية .

وكان هذا الانقسام المذهبى من أهم الأسباب التى أدت الى اضعاف الدولة وانحلالها وسقوطها بعد ذلك .

كان لهذه الحوادث جميعا ـ دون شك ـ أثر فى تخريب المدينة ،

بدليل قول المقريزى عند كلامه على خروج الأفضل لقتال نزار فى الاسكندرية سنة ٤٨٨ هـ :

« وحاصرها ونصب عليها المجانيق ، وألح عليها بالقتال ، ومنع عنها الميرة » .

وأصاب الاسكندرية من هذا النزاع ومن هذا الحصار والقتال كثير من الهدم والتخريب ، وانتقم الأفضل ـ بعد دخوله المدينة ـ من أهليها انتقاما شديدا لتأييدهم نزارا ومبايعتهم له بالخلافة ، ويبدو أن انتقامه كان عنيفا صارما حتى انه قتل عددا من علمائها المالكيين ، فتعطلت الشعائر الدينية ، ولم تقم الجمعة فى مساجدها .

فان ابن فرحون يقول فى ترجمته للطرطوشى ان أبا الطاهر ابن عوف قال :

« وكان نزوله (أى الطرطوشى) بالاسكندرية باثر قتل الأمير بها علماءها ، فوجد البلد عاطلا من العلم ، فأقام بها وبث علما جما » .

وأكد هذا الضبى فى كتابه « بغية الملتمس » ، فبعد أن وصف نوع الحياة التى كان يحياها الطرطوشى مع صفيه عبد الله السايح فى مدينة رشيد ، قال :

« وبقيا هناك (أى فى رشيد) مدة الى أن قتل العبيدى صاحب مصر جماعة من فقهاء أهل الاسكندرية لسبب يطول شرحه ، ولم يبق من يشار اليه ، وسمع أهل الاسكندرية بكون الفقيه برشيد فركب اليه قاضيها .. الخ » .

هاتان روايتان وثيقتان تنسب أولاهما الى أبى طاهر بن عوف تلميذ الطرطوشى الأثير لديه وخلفه فى تصدر العلماء بعد وفاته ، وتنسب ثانيتهما الى الضبى تلميذ تلميذ الطرطوشى أبى بكر

ابن العربى ، وكلتاهما تؤكدان ما سبق أن قررناه من أن الأفضل قد انتقم من أهالى الاسكندرية بعد انتصاره على نزار ، وقتله للعدد الكبير من أعيانها وعلمائها ، بحيث لم يبق فى المدينة كبير من علمائها ، وأحس أهلوها بحاجتهم الماسة الى فقيه كبير يتصدر حلقات الدرس فى مساجدها ليفقه الناس فى أمور دينهم ، ونمى اليهم خبر وجود أبى بكر الطرطوشى بالقرب منهم فى مدينة رشيد ، فكونوا وفدا من أعيانهم وفقهائهم يتقدمه قاضى المدينة ابن حديد ، وانتقلوا الى رشيد .

وفى رشيد ظلوا يبحثون عن أبى بكر الطرطوشى الى أن رأوه مقبلا عليهم من أطراف المدينة وفى صحبته الشيخ الزاهد عبد الله السايح ، وكل منهما يحمل على ظهره حزمة من الحطب .

وألقى الطرطوشى ما على ظهره ، وجلس يستمع الى رجال الوفد السكندرى ، فأخبروه بما وصلت اليه أحوال المدينة ومجالس العلم بها ، والقوا اليه برغبتهم فى أن ينتقل معهم الى الاسكندرية ليفيدوا من علمه .

وتجددت المشكلة القديمة ، فالطرطوشى لا يريد مفارقة أخيه السايح والشيخ الزاهد لا يريد مفادرة رشيد ، فهو فى الاسكندرية لا يستطيع أن يعيش فى الحلال ويأكل المباح ــ كما يفعل فى رشيد .

ولكن رجال الاسكندرية لم يعجزوا عن ايجاد حل لهذه المشكلة ، فقالوا للشيخ عبد الله ان صاحب صقلية يؤدى لأهل الاسكندرية جزية فى كل سنة مقدارها ثلاثمائة قفيز من الشعير ، ووعدوه أن يخصصوا له هذه الجزية ليقتات منها ، بهذا أقنعوه ، وبهذا تم الاتفاق ، وانتقل الرجلان الطرطوشى والسايح الى الاسكندرية .

روى هذه القصة كلها الضبى بشىء من التفضيل قال :

« وسمع أهل الاسكندرية بكون الفقيه برشيد ،

فركب اليه قاضيها ابن حديد (١) وجماعة من أهلها ، فلما وصلوا الى رشيد سألوا عنه ، فلم يجدوا من يعرفه الا بعض الفقراء هناك ، فقال لهم : أنا أدلكم عليه ، اقعدوا هنا ، فكأنى به قد وصل ، فقعدوا ساعة ، ووصل الفقيه من الشعرا (٢) وعلى ظهره حزمة حطب ، وصاحبه معه ، فقال لهم (الفقير) : هذا هو .. ، ووضع (الطرطوشى) الحزمة بالأرض ، وأخبروه بما طرأ عليهم . . . . . . (٣) ولا تعليم ، وباحتياج أهلها اليه ، وبما له فى قصدهم من الأجر .

فقـــال لهم : قد علمت ذلك ، ولكنى لا أفارق صاحبى هذا بوجه ـ وأشار الى عبد الله السايح ـ ، لأنى سقته من موضعه ، وعاهدته أن لا أفارقه ، فدونكم (هو) ، فان ساعدنى (٤) ، فأنا ناهض معكم .

فكلموه ، فقال : أنا لا أمنعه ، لكنى أقيم هنا .

فقال الحافظ ابو بكر : وأنا لا أفارقه .

فتضرعوا الى عبد الله ، فقال لهم : أنا هنا أعيش فى الحلال وآكل المباح ، ولا أجد هذا عندكم .

فقال له القاضى : ان صاحب صقلية ـ دمره الله ـ يؤدى جزية فى كل عام لأهل الاسكندرية ثلاثمائة قفيز من الشعير ، وكذا وكذا ، فخذ الشعير تتقوت (٥) به وتصرفه فى منافعك .

---

(١) الأصل : ابن حديدة ، والصحيح ما أثبتناه .

(٢) كذا بالأصل المنشور ، ولعل « الشعرا » أسم كان يطلق على ضاحية من ضواحى رشيد ، أو لعلها « العراء » وقد أخطأ ناشر الكتاب فى قراءتها .

(٣) بياض بالأصل ، ولعل المقصود أن المدينة أصبحت عاطلة من العلماء والتعليم ، كما سبق أن ذكر ابن فرحون والضبى فيما نقلناه عنهما .

(٤) الأصل : « فدونكم بأن ساعدنى » ولا يستقيم بها المعنى .

(٥) الأصل : « تتفون » ولا معنى لها .

فقال : أنا لا أحتاج الى أكثر من رغيف في كل ليلة .
فضمنوا له ذلك ، وأقبلا معهم الى الاسكندرية ، ووفوا لأبي محمد السايح بما قالوه ، وصنعوا له من الشعير عدة أرغفة ، ووضعوها له في حبل ، فكان يفطر كل ليلة منها على رغيف ، ويلزم بيته لا يبرح منه .
واشتمل أهل الاسكندرية على الحافظ أبي بكر ، وقعد للتدريس ، ونفع الله به كل من قرأ عليه ، وانتشر علمه » .

استقر بالطرطوشي المقام في الاسكندرية واتخذها وطنا ثانيا ودار مقام وصدق عليه قول الشاعر :

وألقت عصـــاها واستقر بها النوى
كما قر عينا بالاياب المســـــافر

وبدأ يدرس وينشر العلم على مذهبه ـ مذهب مالك ـ وتقاطر الناس على حلقاته يأخذون عنه ويقرأون عليه ويفيدون من علمه ، وقد وصف هو الحالة في الاسكندرية عند وصوله اليها وما أحدثه بها ، قال :

« ان ســـألني الله تعالى عن المقام بالاسكندرية لما كانت عليه في أيام الشيعة العبيدية من ترك اقامة الجمعة ومن غير ذلك من المناكر التي كانت في أيامهم أقول له : وجدت قوما ضلالا فكنت سبب هدايتهم » .

ولم يلبث الطرطوشي في الاســـكندرية الا قليلا حتى عرف واشتهر ، وجذب الطلاب والعلماء الي حلقات دروسه ، وتزوج بعد قليل من سيدة موسرة من نساء الاسكندرية ، فأطلقت يده في أموالها ، وتحسنت أحواله ، ووهبته دارا من أملاكها ، جعل سكنه معها في الدور الأعلى ، واتخذ من الدور الأسفل مدرسة يلقى فيها دروسه ، ويستضيف فيها طلاب العلم من الغرباء الوافدين على الاسكندرية .

كانت هذه السيدة التى تزوجها أبو بكر الطرطوشى سيدة فاضلة تقية دينة من بيت من أكبر بيوت الاسكندرية وقتذاك فضلا وعلما وجاها وثروة ، بيت بنى عوف ، فهى خالة فقيه الاسكندرية وكبير علمائها أبى الطاهر بن عوف ـ تلميذ الطرطوشى وخليفته فيما بعد ـ ، وكان لهذه السيدة ابن من زوج سابق ، عرف بالطيش والرعونة ، وقد آلمه زواج أمه من أبى بكر الطرطوشى ، ولعله آلمه كذلك أن ينتقل جزء من ثروة أمه الى هذا الزوج الجديد ، فأضمر فى نفسه شرا ، وأعد خنجرا ، ودخل فى الليل على الفقيه أبى بكر حيث يقيم مع أمه يريد قتله ، ولكنه وجد الزوجين وكلا منهما منفردا يصلى ، وفى طريقه الى الفقيه اصطدم بسارية من سوارى المدرسة فسقط مغشيا عليه ، وأنجى الله الفقيه من هذه المحنة ، وكانت توبة الابن على يديه ، روى الضبى فى « بغية الملتمس » هذه القصة بالتفصيل ، قال :

« وكانت بالاسكندرية امرأة متعبدة هى خالة أبى الطاهر بن عوف ، فخطبته وتزوجها ، وبنى بها فى المدرسة .

وكان لها ابن من أهل الدنيا كثير التخليط ، فصعب ذلك عليه ، وعمد الى خنجر ، واستتر فى المدرسة ، فلما انهار الليل قصد البيت الذى كانت فيه أمه مع الفقيه ، فلم يجد فيه أحدا ، ووجد كل واحد منهما قد قام الى ورده ، وسمع صوت الفقيه يقرأ فى الصلاة فأم الصوت وخنجره فى يده ، فلما قرب منه وهو عازم على قتله ، حالت بينه وبينه سارية من سوارى مساكن المدرسة ، وضرب فيها بوجهه ، وخر مغشيا عليه ، والفقيه لا يشعر .

فلما طلع الفجر نزل الى المدرسة فصلى الصبح ودرس ، وتصرفت زوجه فى أثناء ذلك فوجدت ابنها متجدلا لا يعقل ، فكلمته فلم يكلمها .

فلما فرغ الفقيه من التدريس صعد الى منزله ، فأعلمته زوجه بمكان ابنها ، فصعد نحوه فوجده على تلك الحال ، فجر يده على وجهه وتفل وتكلم بكلمات ، ففتح عينيه ، فلما أبصر الفقيه قال له : هات يدك ، فأنا تائب الى الله تعالى ، والله لا عصيته بعد اليوم أبدا ، ولا تركتك فى هذا الموضع ، انتقل الى دار أهلك فاسكنها بفضل .

وحسنت توبة الابن بعد ذلك » .

٤ ـ موعظة الطرطوشى للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه

وبعد أن استقرت الحياة بالطرطوشى فى الاسكندرية خرج لزيارة العاصمة القاهرة ، وهناك ذهب لزيارة الوزير الكبير صاحب السلطان الأعلى وقتذاك الملك الأفضل شاهنشاه .

ذهب لزيارته بعد أن سمع عن جبروته وقوته وسلطانه ، لا ليسأله منحة أو عطية ، ولا ليقدم له المديح ويشيد بذكره ، بل لينصحه نصيحة العلماء المخلصين ، وليعظه الموعظة الحسنة ، وليطلب اليه الرفق بالرعية ، واشاعة العدل بينهم ، وفتح أبواب قصره لكل شاك أو متظلم .

ولم يكن هذا غريبا من الطرطوشى الرجل العالم الزاهد الجرىء الذى لا يخشى فى الحق لومة لائم ، والذى لا يخاف صاحب السلطان ولا يهابه ، فهو الذى وصفه ابن فرحون بأنه كان أبى النفس ، والذى وصفه المقرى بأنه كان قوالا للحق .

وقد أثبت الطرطوشى موعظته هذه للأفضل فى كتابه « سراج الملوك » قال :

« فلما دخلت على ملك مصر ـ وهو الأفضل ابن أمير الجيوش ـ فقلت : سلام عليكم ورحمة الله

وبركاته ، فرد السلام على نحو ما سلمت ردا جميلا ، واكرم اكراما جزيلا ، وأمرني بدخول مجلسه ، وأمرنى بالجلوس فيه ، فقلت :

ــ أيها الملك : ان الله سبحانه وتعالى قد أحلك محلا عاليا شامخا ، وأنزلك منزلا شريفا باذخا ، وملكك طائفة من ملكه ، وأشركك فى حكمه ، ولم يرض أن يكون أمر أحد فوق أمرك ، فلا ترض أن يكون أحد أولى بالشكر منك .

وان الله تعالى ألزم الورى طاعتك ، فلا يكونن أحد أطوع لله منك .

وان الله تعالى أمر عباده بالشكر ، وليس الشكر باللسان ، ولكنه بالفعل والاحسان ، قال الله تعالى : « اعملوا آل داود شكرا » .

واعلم أن هذا الملك الذى أصبحت فيه انما صار اليك بموت من كان قبلك ، وهو خارج عن يدك مثل ما صار اليك .

فاتق الله فيما خولك من هذه الأمة ، فان الله سائلك عن النقير والقطمير والفتيل ، قال الله تعالى : « فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون » وقال تعالى : « وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها ، وكفى بنا حاسبين » .

واعلم أيها الملك أن الله تعالى قد أتى ملك الدنيا بحذافيرها سليمان بن داود ــ عليهما السلام ــ فسخر له الانس والجن والشياطين والوحوش والبهائم ، وسخر له الريح تجرى بأمره رخاء حيث أصاب ، ثم رفع عنه حساب ذلك أجمع ، فقال له : « هذا عطاؤنا فامنن أو أمسك بغير حساب » .

فوالله ما عدها نعمـــة كما عددتموها ، ولا حسبها كرامة كما حسبتموها ، بل خاف أن تكون استدراجا من الله تعالى ومكرا به ، فقال : « هذا من فضل ربى ليبلونى أأشكر أم أكفر » .

فافتح الباب ، وسهل الحجاب ، وانصر المظلوم ، أعانك الله على ما قلدك ، وجعلك كهفا للملهوف ، وأمانا للخائف » .

واستطرد الطرطوشي فى حديثه فقال للأفضل :

« قد دوخت البلاد شرقا وغربا ، فما اخترت
مملكة تزوجت فيها وولد لى فيها غير هذه المملكة » .

مما يفهم منه أن زيارته هذه للأفضل كانت بعد اقامته فى الاسكندرية بمدة طويلة ، وبعد أن تزوج بها وأنجب .

وختم حديثه أخيرا بهذا البيت من الشعر :

« والناس أكيس من أن يحمدوا رجلا
حتى يروا عنـــده آثار احسان »

هكذا خاطب الطرطوشي العالم الزاهد الملك الأفضل ذا الحول والطول ، وهو فى أوج سلطانه وعظمته ، والكل يأتمرون بأمره حتى خليفته الآمر نفسه .

ولم يرو لنا الطرطوشي كيف تقبل الأفضل هذا الحديث ، وأغلب الظن أنه هز كيانه هزا ، وأنه استنكره فيما بينه وبين نفسه ، وان كان قد تظاهر بقبوله قبولا حسنا ، فان الرجل المستبد يأنف عادة من النقد ، وتستهويه آيات المديح .

٥ ـ الطرطوشي وابن حديد ـ قاضي الاسكندرية

وعاد الطرطوشي الى الاسكندرية ليستأنف سيرته الأولى ، وليفرغ للعلم والتعليم ، وتكاثر طلابه ، وأقبلوا على دروســـه وأحبوه ، واصطنع هو لهم طريقة جديدة هى أقرب شيء الى طرق التربية الحديثة ، فلم يقصر اجتماعاته بهم على حلقات الدرس

ثم ينفضون من حوله ، بل كان يصطحبهم ويخرج معهم فى معظم الأوقات فى رحلات خارج المدينة الى البساتين والأماكن الخلوية ، وهناك فى الهواء الطلق يلقى دروسه ، أو يذاكرهم فيما حفظوه ودرسوه ، وشاقت هذه الطريقة تلاميذه فأقبلوا عليه ، وكثر عددهم ، حتى كان اذا خرج فى رحلة من هذه الرحلات خرج فى كوكبة لا تقل عن أربعمائة طالب .

وصف لنا هذه الطريقة خادم الطرطوشى الخاص وأحد تلاميذه ـ أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التجيبى الاسكندرانى ـ قال :

« كان ـ أى شيخه الطرطوشى ـ صاحب نزهة مع طلبته فى أكثر الأوقات ، يخرج معهم الى البستان فيقيمون الأيام المتوالية فى فرحة ومذاكرة ومداعبة مما لا يقدح فى حق الطلبة ، بل يدل على فضلهم وسلامة صدرهم ، وخرجنا معه فى بعض المنزهة فكنا ثلاثمائة وستين رجلا ، لكثرة الآخذين عنه المحبين فى صحبته وخدمته » .

ولكن هذا الاقبال جر على الطرطوشى الوبال ، فقد ضاق به قاضى الاسكندرية ابن حديد ضيقا شديدا ، ولابن حديد مع الطرطوشى قصة طويلة :

كانت أسرة بنى حديد كبرى الأسرات السكندرية فى ذلك الوقت مكانة وعلما وثروة وجاها وسلطانا ، وقد ولى منصب القضاء فى المدينة أكثر من واحد من أفرادها ، وكان القاضى وقت وجود الطرطوشى بالاسكندرية هو مكين الدولة أبو طالب أحمد بن عبد المجيد بن أحمد بن الحسن بن حديد .

ولكى نعرف أى الرجال كان ابن حديد هذا يكفى أن نعلم أن منصب القاضى كان يلى فى الترتيب والمكانة منصب حاكم المدينة ، وكان يعزز هذه المكانة أن قاضى المدينة كان له ـ الى جانب

اختصاصاته القضائية الدينية الواسعة ـ اختصاصات مالية وادارية وضرائبية كثيرة ، فكان يشرف على الأحباس ـ أى الأوقاف ـ ، وعلى الجوالى ـ أى ضريبة الجزية التى تجمع من أهل الذمة من يهود ونصارى ـ ، وعلى دار الضرب ، وعلى المكوس ـ أى الضرائب المدنية غير الشرعية .

وكان يعزز هذه المكانة أيضا أن ابن حديد نفسه كان ذا ثروة طائلة وأنه كان يحيا حياة العلية من القوم ، فيفتح قصره لكل قاصد ، ويكرم الناس ، ويغدق العطايا ، مما دفع الكثيرين من شعراء العصر الى مدحه والاشادة بذكره ، وقد صدق المقريزى فى وصفه حين قال :

« وله مروءة عظيمة ، ويحتذى أفعال البرامكة ، وللشعراء فيه مدائح كثيرة » .

وقد روى المقريزى فى كتابه « الخطط » أكثر من قصة لبيان هذه المروءة والهمة العالية ، ولوصف حياة البذخ والترف التى كان يحياها القاضى ابن حديد ، أطرفها : أن قصر ابن حديد فى الاسكندرية كان له بستان جميل ، وفى البستان نافورة كبيرة تتكون من قطعة واحدة من الرخام البديع ، ينحدر فيها الماء فتكون كالبركة فى اتساعها ، وكان صاحبها يباهى بها أهل العصر ، الى أن علمت بها البدوية حبيبة الخليفة الآمر بأحكام الله الفاطمى ، فطلبتها منه ، وأجابها ابن حديد ـ مضطرا ـ الى طلبها ، وحملت النافورة الى القاهرة ، وركبت فى بستان الهودج ، وهو القصر الجميل الذى بناه الخليفة الآمر لمحبوبته فى جزيرة الروضة ؛ وتألم ابن حديد لفقده هذه النافورة ألما بالغا ، وما زال يتقرب للبدوية بالهدايا الى أن أمرت برد النافورة اليه .

ويروى المقريزى خلال كلامه عن القاضى ابن حديد حادثة أخرى يستدل بها على مبلغ ما كان يتمتع به القاضى من حياة كلها ترف

وغنى ورفاهية ، وما كان يضمه قصره من تحف جميلة وطرف رائعة ، قال :

« وكان هذا المكين متولى قضاء الاسكندرية ونظرها فى أيام الآمر ، وبلغ من علو همته وعظم مروءته أن سلطان الملوك حيدرة ـ أخا الوزير المأمون البطائحى ـ لما قلده الآمر ولاية ثغر الاسكندرية فى سنة سبع عشرة وخمسمائة ، وأضاف اليه الأعمال البحرية ، ووصل الى الثغر ، ووصف له الطبيب دهن شمع بحضور القاضى المذكور ، فأمر فى الحال بعض غلمانه بالمضى الى داره لاحضار دهن شمع ، فما كان أكثر من مسافة الطريق الا أن أحضر حقا مختوما ، فك عنه فوجد فيه منديل لطيف مذهب على مداف بللور فيه ثلاث بيوت ، كل بيت عليه قبة ذهب مشبكة مرصـــعة بياقوت وجوهر : بيت دهن بمسك ، وبيت دهن بكافور ، وبيت دهن بعنبر طيب ، ولم يكن فيه شيء مصنوع لوقته .

فعندما أحضره الرسول تعجب المؤتمن والحاضرون من علو همته ، فعندما شاهد القاضى ذلك بالغ فى شكر انعامه ، وحلف بالحرام ان عاد الى ملكه ، فكان جواب المؤتمن : « قد قبلته منك لا لحاجة اليه ، ولا لنظر فى قيمته ، بل لاظهار هذه الهمة واذاعتها ، وذكر أن قيمة هذا المداف وما عليه خمسمائة دينار » .

ويعلق المقريزى على هذا بقوله :

« فانظر ـ رحمك الله ـ الى من يكون دهن الشمع عنده فى اناء قيمته خمسمائة دينار ، ودهن الشمع لا يكاد أكثر الناس يحتاج اليه البتة ، فماذا تكون ثيابه وحلى نسائه وفرش داره وغير ذلك من التجميلات » .

كان رجل كابن حديد ينتظر من الطرطوشى عند نزوله بالمدينة أن يسعى اليه وأن يمدحه وأن يكون من حاشيته ، ولو أنه فعل هذا لأغدق ابن حديد عليه العطايا ، وليسر عليه شؤون الحياة جميعا ، ولكن الطرطوشى كان من صنف آخر من الرجال ، كان رجلا يعتد برجولته ، وكان عالما يعتز بعلمه ، وكان بعد هذا زاهدا لا يحبذ ذلك النوع من الحياة المترفة الباذخة التى كان يحياها ابن حديد ، ولعله أخذ على ابن حديد أيضا بعض تصرفاته المالية ، وبعدها عن قواعد الشرع والاسلام ، وأغلب الظن أنه أطلق لسانه يتحدث الى الناس بهذه المآخذ المالية ويعيد الحديث ويكرره فى عنف وقسوة مما آلم ابن حديد وآذاه .

وكانت للطرطوشى الى جانب هذا فتاوى كثيرة يعارض بها بعض النظم والقواعد القائمة التى تأخذ بها الدولة ، فهو مثلا قد أفتى — وهو فى الاسكندرية — بتجريح الجبن الذى يأتى به الروم الى المدينة ، وألف فى تحريمه رسالة صغيرة (١) ، وهو ينتقد كثيرا من العادات السائدة فى المجتمع والتى تنافى الدين الاسلامى ، ويؤلف فى نقدها كتابا أسماه « بدع الأمور ومحدثاتها » (١) .

ثم هو بعد هذا قد جذب اليه عددا ضخما من تلاميذ المدينة وعلمائها ، فصار اذا انتقل من مكان الى مكان ، أو اذا خرج الى رحلاته خرج فى موكب حافل مهيب ، يثير الانتباه ويلفت الأنظار ، وفى هذا دون شك منافسة خطيرة لقاضى المدينة ورجلها ابن حديد ، وفيه خطورة محققة على مركزه ومكانته ؛ لقد انفض السامر من حوله ، وأصبح الحديث بين الناس فى الاسكندرية عن الطرطوشى ، وعلم الطرطوشى ، ورحلات الطرطوشى ، وفتاوى الطرطوشى ، بل ولهج الناس بنقد الطرطوشى لتصرفات ابن حديد كقاض ، وتناقلوا هذا النقد فيما بينهم مما أساء الى سمعة القاضى .

---

(١) انظر الفصل الخاص بمؤلفات الطرطوشى فيما يلى .

لهذا جمع ابن حديد هذه المآخذ كلها ، ورفعها الى الوزير الأفضل شاهنشاه وبين له خطورة هذا الرجل على الاسكندرية وأهلها ، يؤكد هذه الحقيقة ابن فرحون فى ترجمته للطرطوشي ، فقد قال تعقيبا على حديثه عن رحلات الطرطوشي العلمية مع طلابه :

« وهذا من جملة ما رفعه عنه القاضي ابن حديد الى العبيدى ـ يقصد الخليفة الفاطمى ـ ووشى به اليه فى أمور غيرها ، وكان الطرطوشي يذكر بنى حديد ذكرا قبيحا ، لما كانوا عليه من أخذ المكوسات والمعونة على المظالم ، وكان يفتى بتحريم الجبن الذى يأتى به النصارى ، ويفتى بقطع محرمات كثيرة ، فخاطب بذلك بنو حديد ، وذكروه للسلطان » .

٦ ـ الأفضل يستدعى الطرطوشي ويجدد اقامته فى جامع الرصد بالفسطاط

والسلطان المقصود هنا هو الوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالى ، والأفضل لم ينس بعد كيف ثارت الاسكندرية مع نزار ابن المستنصر منذ قليل ووقفت تقاومه مدة ، وهو لا يريد أن يثور شيء من الشعب فى هذه المدينة ، ولو ان هذا العالم الزاهد الثائر ظل على سياسته هذه ينتقد المجتمع ، وينتقد الحاكم ، وينتقد القاضي وأحكامه ، وينتقد القواعد والنظم المالية المتبعة ، وينادى بتحريم الجبن الرومى وغيره من المأكولات التى تأتى من أوربا ، فانه سيسبب للدولة متاعب كثيرة ، وسينقص من مهابتها فى أعين الشعب ، وسيحرض هذا الشعب على مقاطعة التجارة الأجنبية ، فتنقص ايرادات الدولة بنقصان الضرائب التى تؤخذ على هذه التجارة الواردة .

والأفضل يدرك خطورة هذا التقرير الذى رفعه القاضي ابن حديد اليه بشأن الطرطوشي ، فالطرطوشي ليس غريبا عليه ، فهو

يعرفه معرفة أكيدة منذ مقابلته الأولى له ، وهو يذكر جيدا موعظته الجريئة ، وما تضمنته من كلم قاس لاذع ، ومن جرأة نادرة فى قول الحق ، لهذا أراد أن يحسم الشر قبل وقوعه ، فأرسل الى والى الاسكندرية يأمره بارسال الطرطوشى اليه .

وجاء الرسول الى الطرطوشى ، وأراد أن يعطيه فرصة يستعد فيها للسفر ، فقال له :

— « يسر حوائجك ، فانك تمشى يوم كذا » .

فقال الطرطوشى :

— « وأى حوائج معى ؟ ريشى رياشى ، وطعامى فى حوصلتى » .

وفى القاهرة قابل الأفضل الطرطوشى مقابلة طيبة ، ولكنه أمره بالبقاء فى الفسطاط ، وحدد اقامته فى مسجد الرصد جنوبى الفسطاط ، ومنع الناس من الاتصال به والأخذ عنه ، وعين له راتبا شهريا بضعة دنانير يأخذها من متحصل جزية اليهود ، وسمح لخادمه بالاقامة معه .

ويبدو أن الطرطوشى قضى فى اعتقاله مدة طويلة تبلغ شهورا ، فضجر من التضييق على حريته ، واشتد كرهه للأفضل ، تقول المراجع :

« وكان الشيخ يكره الأفضل ، فلما طال المقام به أى بالمعتقل — ضجر وقال لخادمه : الى متى نصبر ؟ أجمع لى المباح من الأرض ، فجمع له ، فأكله ثلاثة أيام ، فلما كان عند صلاة المغرب قال لخادمه : « رميته الساعة » ، فلما كان من الغد ركب الأفضل فقتل » .

ومعنى هذا ان الطرطوشى لما اشتد به الضيق أعلن امتناعه عن أكل شىء مما يأتيه به الأفضل ، وأمر خادمه أن يجمع له شيئا حلالا من المباح من نبات الأرض ، وأكل هذا المباح ثلاثة أيام ،

ثم اعتكف يصلى ويتعبد ويبتهل الى الله ، فلما كان اليوم الثالث قتل الأفضل ، ومن الثابت أن الأفضل قتل في اليوم السابق لعيد الفطر من سنة ٥١٥ هـ .

وهذا بالتالى يحدد لنا المدة التى اعتقل فيها الطرطوشى ، فهو قد اعتقل فى أواخر سنة ٥١٤ هـ أو أوائل سنة ٥١٥ هـ ، وظل فى الاعتقال الى شوال من نفس السنة .

وانكشفت الغمة عن الطرطوشى ، فقد ولى الوزارة بعد الأفضل المأمون البطائحى ، وكان يعلم ما بين الرجلين ، فأفرج عن الشيخ وأكرمه اكراما زائدا وقربه اليه .

٧ ـ الطرطوشى والوزير المأمون البطائحى

وعاد الطرطوشى الى الاسكندرية ، واستأنف بها حياته ونشاطه العلمى ، ولكن هذه المحنة لم تنل منه ولم تفل من حدته ، فقد كانت تشغله دائما الأمور التى كان يراها منافية للشرع والعدل ، والتى سبق أن تقدم للأفضل يطلب تغييرها فلم يستمع اليه ، بل أبعده عن داره ومدينته وحدد اقامته ، وقد خشى الطرطوشى أن تأخذ الوزير الجديد عزة الحكم وأبهة السلطان فيسير على نهج سلفه .

لهذا بدأ بعد عودته الى الاسكندرية مباشرة يؤلف كتابا فى السياسة وفن الحكم ، وما يجب أن يكون عليه الراعى والرعية ، وأتم هذا الكتاب فى سنة كاملة ، وسماه « سراج الملوك » ، وفى شوال سنة ٥١٦ حمل الكتاب وسافر الى القاهرة ليقدمه الى الوزير الجديد المأمون البطائحى ، وليعيد الحديث معه فى الأوضاع السقيمة القائمة في الدولة ، والتى لايقرها الشرع .

ولم يكد المأمون يسمع بوصوله ــ وكان بين يديه الكتاب وكبار الموظفين يعرضون شؤون الحكم ــ حتى أمر فى الحال برفع الدفاتر ،

وفض المجلس ، وأمر بمد السماط ، واستدعى الفقيه لمقابلته ، فلما دخل عليه ، وقف الوزير ، ونزل من مرتبته ، وجلس بين يدى الطرطوشى ، وفى هذا الدليل أكبر الدليل على عظم مكانة الطرطوشى ، وما كان يحسه الوزير نحوه من تبجيل واحترام ، فلم تكن من عادة الوزير فى العصر الفاطمى أن يقوم لتحية القادم عليه مهما كانت مكانته ، ولكن المأمون لم يقنع بالوقوف لتحية الطرطوشى فقط ، بل ترك مرتبته ونزل فجلس بين يديه كما يجلس التلميذ بين يدى الأستاذ .

وبعد المقابلة أمر بانزاله فى مكان خاص أعد له ، وأمر أن يرتب له خمسة دنانير فى اليوم ، ولكن الطرطوشى رفضها ، وطلب أن يصرف له ديناران فقط ، وهو المبلغ الذى كان يصرف له أيام الأفضل .

ثم كان المأمون يستدعيه لمجلسه الخاص الذى يعقده يومى راحته من كل أسبوع ، فيستمع الى شكاواه ويجيب شفاعاته ، وصف هذه المقابلة وهذا الاكرام المقريزى فأحسن الوصف ، قال :

« وفى شوال سنة ٥١٦ وصل الفقيه أبو بكر محمد ابن محمد الفهرى الطرطوشى من الاسكندرية بالكتاب الذى سماه (« سراج الملوك ») ، فأكرمه (أى المأمون) وأمر بانزاله فى المجلس المهيأ للأخوة ، وتقدم برفع أدوية الكتاب وأوطية الحساب وسلام الأمراء ، وعمل السماط ، وسارع الى البادهنج ، واستدعى بالفقيه ، فلما شاهده وقف ونزل عن المرتبة ، وجلس بين يديه ، ثم انصرف ومعه أخو المأمون الى مكان أعد له ، وحمل اليه ما يحتاج اليه ، وأمر مشارف الجوالى أن يحمل اليه فى كل يوم خمسة دنانير بمقتضى توقيع مقتضب ، فامتنع الفقيه ، وأبى أن يقبل غير الدينارين اللذين

كانا له فى الأيام الأفضلية ، وصار المأمون يستدعيه فى يومى راحته ، ويبالغ فى كرامته ، ويقضى شفاعاته » .

وحضر الطرطوشى لمقابلة المأمون ليقدم له كتابه « سراج الملوك » الذى ألفه باسمه وأهداه اليه ، وليعرض عليه تلك الأمور الظالمة المنافية للشرع التى سبق أن تحدث بشـــأنها فى أيام الأفضل فلم يستمع اليه .

أما الكتاب فله حديث خاص مفصل سنعود اليه بعد قليل فى فصل المؤلفات .

وأما تلك الأمور فكانت تتلخص فى النظم المتبعة فى الميراث :

فقد كان القضاة فى مصر على العصر الفاطمى يتبعون المذهب الشيعى الاسماعيلى ، وهذا المذهب يقضى بأن ترث البنت كل ما يترك أبوها اذا كانت وحيدة لا أخ لها أو أخت ، ويحرم العصبة من المشاركة فى الميراث .

وكانت النظم الوضعية المتبعة تقضى أيضا بأن يأخذ أمنـــاء الحكم ــ أى الموظفون القضائيون المشرفون على شؤون الميراث ــ ربع العشر من أموال الأيتام عند توزيع التركة بمثابة أجر لهم .

وكان الطرطوشى يرى فى الأمر الأول مخالفة للشرع فى نظره ، أى للمذاهب السنية ، فالمذاهب السنية ترى ألا ترث البنت الوحيدة أكثر من نصف التركة ، وكان يرى فى الأمر الثانى ظلما فاحشا واغتصابا لحق الأيتام ، ومن واجب الحكومة أن تحافظ عـــلى أموالهم وتصونها ، لا أن تقتطع جزءا منها لموظفيها .

وتناقش الطرطوشى طويلا مع المأمون فى هذه الموضــوعات ، واعتذر المأمون عن الأمر الأول بأنه مما جرت العادة السابقة به ، وأنه لم يحدث فى أيامه ، وأنه يتفق ومذهب الخليفة الفاطمى ، فليس من اليســـير أن يوافق على تغييره ، لأنه يتصل بصميم المذهب الشيعى الاسماعيلى ، مذهب الدولة الرسمى .

وبعد نقاش طويل وافق المأمون على حل وسط يرضى المذهب

الرسمى للدولة ويرضى الطرطوشى ، فقد وافق على اصدار أمر للقضاة بأن يتبع فى الميراث مذهب الميت ، فان كان سنيا اتبع المذهب السنى ، وان كان شيعيا اتبع المذهب الشيعى .

أما الأمر الثانى ، فقد وافق عليه الوزير منذ اللحظة الأولى ، لأنه رأى فيه اجحافا حقيقيا بأموال اليتامى وحقوقهم ، وأمر بأن يصرف للموظفين ـ أمناء الحكم ـ راتب من خزانة الدولة بدلا من المبالغ التى كانوا يقتطعونها من أموال اليتامى .

وصدر سجل رسمى موقع عليه من الخليفة الآمر بأحكام الله والوزير المأمون البطائحى بهذه الأوضاع الجديدة ، وأرسل الى القضاة فى كل أنحاء الدولة للعمل به .

ولما اطمأنت نفس الطرطوشى بهذا الاتفاق أخذ ـ كما يقول المقريزى ـ فى ذكر بقية حوائج أصحابه ، فحقق له الوزير ما أراد ، وأجاب شفاعاته فيهم .

وبعد نحو شهرين من اقامته فى القاهرة أزمع العودة الى الاسكندرية ، فذهب الى الوزير يشكره ويودعه ، وتقدم اليه فى هذه المقابلة بمطلب آخر ، طلب الموافقة على انشاء مسجد جديد بالاسكندرية بظاهر الثغر على البحر ، فرحب الوزير بطلبه ، وكتب فى الحال الى ابن حديد قاضى الاسكندرية يأمره بالاشراف على بناء المسجد فى المكان الذى يتخيره الطرطوشى ، وأن « يبالغ فى اتقانه وسرعة انجازه ، وتكون النفقة عليه من مال ديوانه دون مال الدولة » .

ويقول المقريزى :

« وتوجه ـ أى الطرطوشى ـ فبنى المسجد المذكور على باب البحر » .

وباب البحر كان قريبا من ميدان المنشية الحالى ، وهذا المسجد للأسف من المساجد التى هدمت وتلاشت معالمها ، فلا وجود له الآن فى مدينة الاسكندرية .

الباب الرابع

تلاميذ الطرطوشي

تقدمـــــة .

١ ــ سند بن عنان .

٢ ــ أبو الطاهر بن عوف .

٣ ــ أبو بكر بن العربى .

٤ ــ المهدى بن تومرت .

تلاميذ الطرطوشي

تقـــدمة : ـ

عالمان كبيران اقتسما الزعامة الفكرية فى العالم الاسلامى فى أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الهجريين : الغزالى فى المشرق ، والطرطوشي فى الاسكندرية والمغرب ، وقد تتلمذ على الطرطوشي ـ كما أسلفنا عدد كبير من طلبة العلم من أبنـــاء الاسكندرية ومن الوافدين عليها وبخاصة الأندلسيين والمغاربة ، فقد كان هؤلاء يقفون بالاسكندرية ـ وهم فى طريقهم الى الحج ـ وقفة طويلة ويترددون على مدرسة الطرطوشي وحلقات العلم التى يعقدها معتزين بمواطنهم فخورين به يرتشفون من مناهل علمه ويسألونه الأجازة لهم ولمواطنين آخرين لم تتح لهم فرصة التلمذة المباشرة عليه .

وكان منهاج الطرطوشي الأول فى الحياة الورع والتقـــوى والتمسك الشديد بأهداب الدين ، وكانت وسيلته الكبرى التى التزم بها هى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فى عنف وصرامة ، وقد أخذ تلاميذه بهذا المنهج وبهذه الوسيلة ، وكان أثره فيهم قويا واضحا ، ولهذا تخرج عليه الكثيرون ، ونبغ من بينهم رجـــال بارزون من العلماء والمصلحين ، وقد اخترنا من بين الكثرة الكثيرة من هؤلاء التلاميذ أربعة من نوابغهم ، اثنين من أبناء الاسكندرية واثنين من أبناء المغرب والأندلس ، ورأينا أن نقدم لكل منهم هنا ترجمة مختصرة لنبين الى اى حد كان أثر هذا الأستاذ الكبير فى تلاميذه وفى المجتمع الاسلامى بوجه عام .

أما التلميذان السكندريان فهما : العالم والفقيه الكبير القاضى سند بن عنان الذى خلفه فى مدرسته وحلقته وجلس على كرسى

الأستاذية من بعده ، والفقيه المالكى كبير علماء الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى أبو الطاهر بن عوف .

وأما التلميذان المغربيان فهما العـــالم الكبير قاضى اشبيلية أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ، والداعية الأكبر المهـــدى ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين .

١ ـ سند بن عنان

هو أبو على سند بن عنان بن ابراهيم بن حريز بن الحسين ابن خلف الأزدى .

كان أنبغ تلاميذ الطرطوشى وأقربهم اليه ، وكان كأستاذه مالكى المذهب ، وقد سمع منه ، ولازم حلقته سنين طويلة ، ولم يأخذ عن أستاذه العلم وحده بل قبس من أخلاقه وفضله ، ومن فلسفة الزهد التى أخذ الطرطوشى بها نفسه ، ولهذا وصفه ابن فرحون فى كتابه « الديباج المذهب » بقوله :

« كان من زهاد العلماء وكبار الصالحين ، فقيها فاضلا ، تفقه بالشيخ أبى بكر الطرطوشى » .

وروى فقيه آخر هو أبو القاسم بن مخلوف بن عبـــد الله ابن عبد الحق بن جاره قال :

« أخبرنى من أثق به أنه رأى الفقيه أبا عـــلى سند بن عنان ، قال فقلت له : ما فعل الله بك ؟ فقال : عرضت على ربى فقال لى أهلا بالنفس الطاهرة الزكية العالمة » .

ووصفه عالم مصرى فى القرن السابع الهجرى هو تقى الدين ابن دقيق العيد بقوله :

« كان ـ أى سند بن عنان ـ فاضلا من أهل النظر » .

وكان سند بن عنان كأستاذه الطرطوشي يقول الشعر أحيانا ، وقد روى ابن فرحون بيتين من شعره ، قال : ومن نظم سند رحمه الله :

وزائرة للشيب حلت بمفرقي

فبادرتها بالنتف خوفا من الحتف

فقالت :

على ضعفي استطلت ووحدتي ؟

رويدك للجيش الذى جاء من خلفي

واشتغل سند بن عنان بالتأليف ، ذكرت المراجع أنه ألف كتابا ضخما فى شرح « المدونة » ــ وهي من أمهات الكتب فى فقه مالك ــ وسمى سند شرحه هذا « الطراز » وكان فى ثلاثين مجلدا ، غير أنه توفى قبل اتمامه .

وقد رشحت هذه المؤهلات جميعا سند بن عنان لأن يخلف أستاذه الطرطوشي ، فجلس فى حلقته ومدرسته بعده يلقى الدروس فى العلوم المختلفة ، وخاصة فى فقه مالك ، قال ابن فرحون :

« وجلس ــ سند بن عنان ــ لالقاء الدرس بعد الشيخ أبى بكر الطرطوشي ، وانتفع الناس به » .

وظل سند بن عنان (١) يدرس احدى وعشرين سنة بعد وفاة أستاذه الطرطوشي الى أن توفى سنة ٥٤١ هـ ، ودفن بالقرب من قبر الطرطوشي ، ولا زال مسجد القاضي سند بن عنان موجودا حتى اليوم داخل المسجد المسمى باسمه فى شارع الباب الأخضر (أو شارع السكة الجديدة) بالاسكندرية .

---

(١) انظر ترجمته فى : (ابن فرحون : الديباج المذهب) و (جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى) .

٢ ـ أبو الطاهر بن عوف

اسماعيل بن مكى

أبو الطاهر بن عوف هو اسماعيل بن مكى بن اسماعيل ابن عيسى بن عوف الزهرى ، وينتهى نسبه الى عبد الرحمن ابن عوف الصحابى الجليل ، وقد كان شيخ المالكية فى مدينة الاسكندرية طوال القرن السادس الهجرى (١٢ م) دون منازع ، فقد ولد سنة ٤٨٥ هـ (١٠٩٢) وتوفى سنة ٥٨١ هـ (١١٨٥) عن ست وتسعين سنة .

وصفه السيوطى بأنه « صدر الاسلام » ، وقال انه تفقه على أبى بكر الطرطوشى وسمع منه ، وتخرج به الأصحاب .

وقال أبو الحسن على بن الحميرى :

« كان ابن عوف ـ رحمه الله تعالى ـ امام عصره وفريد دهره فى الفقه على مذهب مالك رحمه الله ، وعليه مدار الفتوى ، وجمع الى ذلك الورع والزهد وكثرة العبادة ، والتواضع التام ، ونزاهة النفس » .

وقال عالم الاسكندرية ومؤرخها منصور بن سليم :

« كان ـ ابن عوف ـ من العلماء الأعلام ، ومشايخ الاسلام ، ظاهر الورع والتقوى ، كتب عنه الحافظ السلفى ، وروى عنه شرف الدين ابن المقدسى » .

وبيت ابن عوف بيت مصرى سكندرى أصيل ، نبغ فيه أكثر من عالم ملأوا المدينة علما ، قال منصور بن سليم :

« وبيت ابن عوف بثغر الاسكندرية بيت كبير شهير بالعلم ، كان فيه جماعة من الفقهاء ، قال الشيخ شهاب الدين بن هلال : سمعت أنهم اجتمع منهم سبعة فى وقت واحد ، وكانوا اذا دخلوا على الامام أبى على

سند بن عنان ــ مؤلف كتاب الطراز ــ يقول : أهلا بالفقهاء السبعة ، تشبيها لهم بالفقهاء السبعة أئمة المدينة النبوية » .

وقد أخذ ابن عوف عن الكثيرين من الفقهاء المالكية بالاسكندرية ، وخاصة عن أبى بكر الطرطوشي ، ولا عجب فى هـــذا ، فقد كان ابن عوف ربيب الطرطوشي ، وكان الطرطوشى تزوج خالة ابن عوف .

وشهد أبو الطاهر بن عوف نهاية الدولة الفاطمية الشيعية وقيام دولة صلاح الدين فى مصر فى سنة ٥٦٧ هـ ، وقد زار صلاح الدين الاسكندرية فى سنة ٥٧٧ هـ ، وحرص فى هذه الزيارة أن يحضر هو وأولاده وكبار رجال دولته دروس أبى الطاهر بن عوف ، وسمعوا عليه جميعا « موطأ مالك » بروايته عن أستاذه الطرطوشي .

وأصبحت لابن عوف عند صلاح الدين منذ ذلك الحين مكانة كبيرة ، يجله ويحترمه ، ويقدره ويوقره ، واذا اعترضته مشكلة من مشاكل الدين أو الدولة أرسل اليه يسأله الرأى والفتوى ، يؤكد هذا قول ابن فرحون :

« وكان السلطان صلاح الدين يوسف بن أيوب يعظم ابن عوف ويراسله ويستفتيه » .

وكان صلاح الدين يستجيب لرأى ابن عوف ومشورته ، فقد أسرع بتلبية رغبته عندما أشار عليه باعادة ضريبة الصادر ، وهى ضريبة كانت تفرض على تجارة الفرنج الصادرة عن الاسكندرية ، وتوزع حصيلتها على فقهاء الثغر .

وقد أشارت المراجع الى أن نشاط ابن عوف لم يكن مقصورا على التدريس وحسب ، بل كان له نشاط مماثل في ميدان التأليف ، فقد قال السيوطى : « وله مؤلفات » ، وقال ابن فرحون : « وله مصنفات » ، ثم أشار الى اثنين من هذه المصنفات ، فقال :

« قال ابن هلال : رأيت له مجلدا فى الرد على المتنصر ، وهو رجل يدعى العلم وليس من أهله ، صنف كتابا أسماه « الفاضح » واعتقد أنه نقض به الشريعة المحمدية ، وادعى فيه تناقضا فى الأحكام ، وكان جاهلا مصحفا ، فمما صحف قوله ـ صلى الله عليه وسلم ـ « ثمرة طيبة وماء طهور » بقوله « خمرة طيبة » ، وقال : انظر كيف يقول : « خمرة طيبة » وهو يحرم شرب الخمر .

وللشيخ أبى الطاهر تذكرة التذكرة فى أصول الدين ، وغير ذلك من التآليف » .

هذا هو ابن عوف ، أما مدرسته فقد أشار اليها المقريزى فى كتابه « اتعاظ الحنفا » ، فقال فى حوادث سنة ٥٣٢ هـ :

« وفيها بنى الوزير رضوان المدرسة المعروفة فى ثغر الاسكندرية ، وجعل فى تدريسها الفقيه أبا طاهر ابن عوف » .

فتكون بذلك أول مدرسة (١) أنشئت فى مدينة الاسكندرية ، بل فى مصر كلها فى العصر الاسلامى ، فقد سبقت المدرسة السلفية باثنتى عشرة سنة .

وقد عثرت لحسن الحظ فى « صبح الأعشى » على السجل الصادر عن الخليفة الفاطمى الحافظ لدين الله بتعيين ابن عوف مدرسا لهذه المدرسة ، وهو سجل ذو أهمية كبرى ، لأنه السجل الوحيد الذى وصلنا من العصر الفاطمى كله بتعيين مدرس ، وهو الى هذا يتضمن معلومات جديدة عن هذه المدرسة التى لا نكاد نعرف عنها شيئا .

---

(١) انظر : جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٠٦ وما بعدها .

وفى سنة ٥٨١ هـ توفى ابن عوف (١) ، ودفن فى الاسكندرية ، ولكنا نبحث اليوم عن مدرسته أو عن قبره فلا نجد لهما أثرا ، وهكذا فعل النسيان والاهمال بعالم ملأ المدينة علما ، وقضى حياته الطويلة كلها يعلم ويدرس ويؤلف وينفع الناس .

٣ ـ أبو بكر بن العربى

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن العربى المعافرى الاشبيلى
ولد فى اشبيلية سنة ٤٦٨ هـ (١٠٧٦) ، وصحب أباه فى رحلته الى المشرق سنة ٤٨٥ (١٠٩٢) وكان حينذاك فى السابعة عشرة من عمره ، وتتلمذ ابان هذه الرحلة على كبار علماء مصر والحجاز والشام والعراق : ففى بغداد حضر دروس أبى حامد الغزالى ، وفى بيت المقدس لازم أبا بكر الطرطوشى (قبل انتقاله الى الاسكندرية واستقراره بها) وتتلمذ عليه .

واستغرقت رحلته هذه ثمانى سنوات توفر فيها على دراسة علوم الدين المختلفة ، وبخاصة الفقه والحديث والتفسير ، وفى سنة ٤٩٣ ترك بغداد الى الاسكندرية ، فأقام بها وقتا لازم خلاله أستاذه القديم أبا بكر الطرطوشى فاستزاد من علمه ووثق علاقته به .

ولما اعتزم ابن العربى العودة الى وطنه حمله أستاذه الطرطوشى

---

(١) راجع ترجمته فى :
(ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص ٩٥ ـ ٩٦) و (أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج ١ ، ص ٢٧٦ و ج ٢ ، ص ٢٤ ؛ والذيل على الروضتين ، ص ١٥٦) و (المقريزى : مخطوطة اتعاظ الحنفا ، ص ١٢٨ ب ؛ السلوك ، ج ١ ، ص ١٤٤ و ١٩١) و (ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٦ ، ص ١٢٧) و (السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٩٢) و (الصفدى : نكت الهميان ، ص ١٨٥) و (ابن واصل : مفرج الكروب ، نشر الشيال ، ج ٢ ، ص ١١٢) و (القلقشندى : صبح الأعشى ، ج ١٠ ، ص ٤٥٨ ـ ٤٥٩) و (جمال الدين الشيال : أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، ص ١٠٣-١٢٧).

رسالة الى سلطان المغرب المرابطى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين قدم اليه فيها النصائح بأن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه ، وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتـــح بابه لكل صاحب مظلمة ، ثم أوصى السلطان خيرا بتلميذه ابن العربى فقال مزكيا له ومقرظا لعلمه ومواهبه :

« والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا ، وهو ممن جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفى أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه — وهو أجل القائلين — « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » (١) .

وعاد أبو بكر بن العربى الى وطنه محملا بهذه الوصية والتزكية من أستاذه فأكرمه السلطان وعينه قاضيا لمدينته اشبيلية ، يقول ابن بشكوال فى كتابه « الصلة » :

« فنفع الله به أهله لصرامته وشدته ونفوذ أحكامه ، وكان له فى الظالمين سورة مرهوبة ، ثم صرف عن القضاء ، وأقبل على نشر العلم وبثه » .

---

(١) نشرنا هذه الرسالة كاملة لأول مرة ملحقة بهذا الكتاب .

وكان ابن بشكوال نفسه من تلاميذه ، وقرأ عليه الكثير من كتبه ومؤلفاته .

وكثر حامدو ابن العربى (١) وشانئوه ، ووشى به الواشون فقبض عليه وسجن فى مدينة مراكش نحو عام ، ولما أطلق سراحه خرج قاصدا مدينة فاس ، فمات فى طريقه اليها فى سنة ٥٤٣ ، فحمل اليها ودفن بها ، قال عنه ابن بشكوال انه :

« ختام علماء الأندلس ، وآخر أئمتها وحفاظها » .

وترجم له النباهى فى « تاريخ قضاة الأندلس » ؛ وله مؤلفات كثيرة فى الحديث والفقه والأصول والتفسير والأدب والتاريخ ، وقد طبع بعض هذه المؤلفات مثل « العواصم من القواصم » و « أحكام القرآن » ؛ ولا زال البعض الآخر مخطوطا ، مثل : « عارضة الأحوذى فى شرح الترمذى » و « القبس فى شرح الموطأ » و « الانصاف فى مسائل الخلاف » و « أعيان الأعيان » و « قانون التأويل » .. الخ .

المهدى بن تومرت

(٤٨٥ - ٥٢٤ = ١٠٩٢ - ١١٣٠)

هو أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن تومرت المصمودى البربرى الجنس ، الملقب بالمهدى ، مؤسس دولة الموحدين ، ينتمى الى قبيلة هرغة احدى قبائل جبل السوس بالمغرب الأقصى ، ولد ونشأ فى

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل فى :

(السيوطى : طبقات الحفاظ) و (ابن خلكان : وفيات الأعيان) و (المقريزى : نفح الطيب) و (النباهى : تاريخ قضاة الأندلس) و (ابن فرحون : الديباج المذهب) و (ابن بشكوال : الصلة) و (ابن العربى : العواصم والقواصم ، مقدمة محب الدين الخطيب) و (الزركلى : الأعلام) .

قبيلته ، ثم رحل الى الشرق طلبا للعلم ، فانتهى الى العراق ودرس بالمدرسة النظامية بعد افتتاحها وحضر دروس أبى حامد الغزالى ، وأدى ابان رحلته هذه فريضة الحج وجاور بمكة زمنا ، وكان ورعا تقيا منصرفا الى العبادة شديدا على من يخالف أوامر الدين ، فاذا رأى منكرا حاول أن يمنعه بلسانه وبيده فثار به جماعة من أهل مكة ، فغادرها الى مصر ، وقصد مدينة الاسكندرية واتصل فيها بأبى بكر الطرطوشي وتتلمذ عليه ، وهناك حاول أن يفعل ما فعله فى مكة وأن يقيم نفسه آمرا بالمعروف ناهيا عن المنكر فأخرج من المدينة وأبحر الى المغرب ، ونزل فى طريقه بالمهدية وهناك أعاد الكرة فكسر ما رآه فيها من آلات اللهو وأوانى الخمر ، وانتقل منها الى بجاية ، فأخرج منها الى قرية « ملالة » ، فلقى بها عبد المؤمن ابن على القيسى الكومى ، وهو شاب نابه ذكى ، فاتخذه مريدا ، واتفقا معا على الدعوة له باعتباره المهدى المنتظر ، وانتقلا الى مدينة مراكش ، وحضر ابن تومرت مجلس على بن يوسف بن تاشفين ، وأنكر عليه بدعا ومنكرات ، وغادر ابن تومرت مراكش الى موضع حصين من جبال « تينملل » ، وبدأ يعظ الناس هناك ، فأقبلوا عليه وأيدوه ، فأخذ يحرضهم على عصيان ابن تاشفين ، ونشب القتال بينهم وبين جند الدولة ، فقتلوا نفرا منهم ، وقوى أمر ابن تومرت منذ ذلك الوقت ، فجاهر بالدعوة ولقب نفسه بالمهدى القائم بأمر الله .

ولم يعمر ابن تومرت طويلا ، وتوفى سنة ٥٢٤ هـ قبل أن يتم له فتح مدينة مراكش ، ولكنه كان قد مهد الأمور ووضع القواعد الدولة الجديدة ، فأتم الفتوح بعده صاحبه عبد المؤمن بن على المؤسس الحقيقى للدولة الموحدية .

وكان ابن تومرت أسمر ربعة عظيم الهامة حديد النظر داهية شديد الذكاء فصيحا أديبا ، وله مؤلفات منها : « كنز العلوم »

وأهمها « كتاب أعز ما يطلب » وقد أودعه أصول دعوته ، وترجمه الى اللغة البربرية .

وقد كان ابن تومرت (١) ينسب نفسه الى الرسول عليه السلام ولكن هذا النسب مشكوك فيه ولا تأخذ به معظم المراجع .

---

(١) راجع ترجمته بالتفصيل فى :

(ابن خلكان : وفيات الأعيان) و (السلاوى : الاستقصا) و (أخبار المهدى بن تومرت ، طبع باريس ١٩٢٨) و (ابن خلدون : كتاب العبر) و (ابن الخطيب : رقم الحلل) و (ابن الأثير : الكامل) و (الصفدى : الوافى بالوفيات) و (محمد عبد الله عنان : تراجم اسلامية) و (الزركلى : الأعلام) .

الباب الخامس

مؤلفات أبى بكر الطرطوشى

مؤلفات أبي بكر الطرطوشي

أشرنا من قبل الى أن الطرطوشي قدم الى الاسكندرية حوالى سنة ٤٩٠ أو ٤٩١ هـ وقد بلغ الأربعين من عمره ، وأنه قضى هذه السنوات الأربعين متنقلا مرتحــلا فى بلدان المغــرب والمشرق الاسلاميين يطلب العلم أولا ، وينشر العلم ويشتغل بالتدريس ثانيا (وخاصة فى المرحلة التى قضاها فى الشام) .

فلما وصل الى الاسكندرية استقر بها ، ولم يكن يغادرها الا لزيارة القاهرة ، ثم يعود ثانية الى مدرسته وتلاميذه وحيــاته العلمية الغنية فى الاسكندرية .

وهذه الحياة القلقة الثائرة غير المستقرة لم تمنع الطرطوشى من التأليف ، فقد ذكرت المراجع المختلفة التى ترجمت له أن له تآليف كثيرة : وأغلب الظن أنه كتب بعضا من هذه المؤلفات أثناء مقامه فى الشام ، وأنه ألف الغالبية العظمى منها أثناء مقامه فى الاسكندرية ، فان حياة الارتحال والطلب الأولى فى الأندلس والحجاز والعراق والشام لم تتح له الفرصة للتفرغ للتأليف ، كما أن سن الأربعين التى بلغها عند نزوله بالاسكندرية هى سن النضــوج الفكرى ، يضاف الى ذلك أيضا هذه الحياة المستقرة التى حياها فى الاسكندرية ، وخاصة بعد أن تزوج بها وأنجب ، واطمأن الى معيشة هادئة فى كنف هذه الزوجة السكندرية الصالحة .

هذه الأسباب تؤيد ترجيحنا أن الطرطوشى وضع معظم مؤلفاته ابان الحقبة التى عاشها فى الاسكندرية ، ومداها نحو الثلاثين عاما ، فهو قد نزل بها وسنه نحو الأربعين ، وتوفى بها فى سنة ٥٢٠ هـ وهو فى سن السبعين ، ويؤكد ترجيحنا السابق الملابسات والظروف

التى ألفت فيها وبسببها معظم كتب الطرطوشى ، فسنرى عند استعراضنا لها أن الأسباب التى دفعته الى تأليفها كانت ظروفا وأحداثا تتصل بالمدة التى قضاها فى مصر بوجه عام ، وفى الاسكندرية بوجه خاص .

ويبدو واضحا من قائمة المؤلفات التى ذكرتها المراجع ، ونسبتها الى الطرطوشى أن الرجل كان نشيطا منتجا خصب الانتاج ، وقد أحصيت له اثنين وعشرين مؤلفا ، الموجود منها تسعة ، والباقى مفقود .

ومن هذه المؤلفات التسعة طبع اثنان فقط ، والسبعة الأخرى ما زالت مخطوطة .

وبعض هذه المؤلفات يتصل بعلوم التفسير ومسائل الخلاف والفقه ــ وفقه مالك بوجه خاص ــ ، والبعض الآخر يتناول بالبحث علم السياسة وفن الحكم ، والمجتمع وأدواءه وأحواله .

وفيما يلى عرض تحليلى تفصيلى لهذه الكتب :

١ ــ أولها : ((**مختصر تفسير الثعالبى**)) (١) :

والثعالبى ــ أو الثعلبى ــ هو أبو اسحاق أحمد بن محمد ابن ابراهيم النيسابورى المتوفى سنة ٤٢٧ هـ ، قال عنه ابن خلكان :

((كان أوحد زمانه فى علم التفسير ، وصنف التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير ، وله كتاب العرائس فى قصص الأنبياء)) .

وهذا التفسير الكبير الذى فاق غيره من التفاسير هو الذى أسماه صاحبه ((الكشف والبيان فى تفسير القرآن)) ، وهو الذى

---

(١) ذكره (ابن خير فى الفهرست) و (ابن فرحون فى الديباج المذهب) و (المقرى فى نفح الطيب) و (بروكلمان) .

اختصره الطرطوشي فى كتاب خاص ، **وقد قام بتأليف هذا المختصر** أثنـــاء مقامه فى الشـــام ، وكان يدرسه فى المسجد الأقصى ببيت المقدس ، ذكر ذلك العالم الأندلسى أبو بكر محمد بن خير فى « فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين » ، قال :

« كتاب الكشف والبيان فى تفســـير القرآن ، تصنيف الأستاذ أبى اسحاق أحمد بن محمد الثعلبى — رحمه الله .

كتاب اختصاره الشيخ الامام أبى بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشي — رحمه الله — ، حدثنى بمختصره الشيخ القاضى أبو بكر محمد بن عبد الله ابن العربى — رحمه الله — اجازة ، قال : حدثنى به مختصره شيخنا الزاهد الامام أبو بكر الفهرى الطرطوشي فى **مهد عيسى بالفسيفساء من المسجد الأقصى فى رمضان سنة ٤٨٧** بحضرتى وقراءتى له عليه » (١) .

وتوجد فى دار الكتب المصرية بالقاهرة نسخة خطية من الجزء الثانى من هذا المختصر (٢) .

---

(١) فهرست ابن خير ، ص ٥٩ .

(٢) وهذا نص ما ورد على صفحة العنوان من هذه المخطوطة :

« الجزء الثانى من مختصر كتاب الكشف والبيان فى تفسير القرآن الذى هو تصنيف الشيخ الامام أبى اسحق أحمـــد بن محمـــد بن ابراهيم الثعلبى — رحمه الله — ، مما عنا (كذا) باختصاره وحذف أسانيده وتكراره الشيخ الفقيه الامام أبو بكر محمد بن الوليد بن خلف بن سليمان بن ... الفهرى الطرطوشى رضى الله عنه » .

وكتب تحت العنوان بخط مخالف : « وقف هذا الجزء وما بعده وتصدق به ابتغاء لوجه الله تعالى وطلبا لمرضاته الأمير أحمد اغا باش جاويش تفكجيان ، وجعل مقره فى خزانة جامع شيخون وتحت يد امامه ، تقبـــل الله منـــه ذلك بتاريخ ١١٩٣ .

٢ ــ والكتاب الثانى تسميه المراجع : ((**الكتاب الكبير فى مسائل الخلاف**)) (١) أو ((**التعليقة الكبيرة فى الخلافيات**)) :

وذكر أحد المراجع أن هذا الكتاب كان كبيرا يقع فى خمسة أجزاء . والخــــلاف ــ كما نعلم ــ أحد العلوم الأولى التى بدأ الطرطوشى يتلقى أصولها منذ صباه المبكر فى وطنه الأول الأندلس على أستاذه أبى الوليد الباجى ، والتى استزاد منها حتى أتقنها أثناء تحصيله فى بغداد والبصرة وغيرهما من مدن العراق ، وبعد أن تم نضجه الفكرى فى الاسكندرية وأصبح أستاذا ومرجعا فى هذا العلم وضع هذا المؤلف الكبير فى مسائل الخلاف فى خمسة أجزاء .

٣ ــ أما الكتاب الثالث فهو ((**شرح لرسالة الشيخ أبى زيد القيروانى**)) :

وأبو محمد عبد الله بن أبى زيد عالم من أكبر علماء الفقـــه المالكى الأوائل الذين وضـــعوا أسسه وقواعده ، وقد عاش فى القرن الرابع الهجرى ، وسكن القيروان مدة ، وكان اماما للمالكية فى وقته ، وهو جامع مذهب مالك وشارح أقواله ، حتى لقد عرف باسم « مالك الصغير » ، وقد توفى سنة ٣٨٩ هـ ، وله تآليف كثيرة أهمها : « الرسالة فى الفقه المالكى » .

وقد شرح الرسالة كثيرون من علماء المالكية ، والطرطوشى ــ كما نعلم ــ نشأ مالكى المذهب ، وظل طول حياته مالكى المذهب ، وعاش الفترة الأخيرة من حياته فى مدينة الاسكندرية حيث كان يسود المذهب المالكى ، ومن المرجح اذن أن يكون هذا الشرح بعض دروسه فى المذهب المالكى التى كان يلقيها فى مدينة الاسكندرية .

---

(١) ذكره : (الحميرى فى صفة جزيرة الأندلس) و (ابن فرحون فى الديباج المذهب) و (المقرى فى نفح الطيب) و (الزركلى فى الأعلام) و (حاجى خليفة فى كشف الظنون) .

٤ — والكتاب الرابع لم تذكره المراجع التى أرخت للطرطوشى وأحصت مؤلفاته ، ولكن الطرطوشى نفسه أشار اليه فى أكثر من موضع من كتابه « سراج الملوك » ، وسماه هناك : **« كتاب الأسرار »** :

قال مرة أثناء حديثه عن العقل :

« قد ذكرت فى **« كتاب الأسرار »** حقيقة العقل وأقسامه ، ومحله وأحكامه ، بما لا مزيد عليه ، ونذكر ها هنا منافعه ومداركه ولباب ما تحرر من القول فيه .. الخ » (١) .

وقال مرة أخرى عند كلامه عن القضاء والقدر :

« وقد كنت جمعت فيه كتابا من جملة **كتابى فى الأسرار** ، هل التوفيق مكتسب أو موهبة بلا سبب فلا مزيد عليه .. » (٢) .

فللطرطوشى اذن كتاب اسمه « كتاب الأسرار » ، ويبدو من هذه الشواهد أن الكتاب يتناول موضوعات تتصل بالانسان والعقل ، وبالقضاء والقدر ، وما يشبهها من موضوعات .

٥ — والكتاب الخامس ذكره ثلاثة من المؤرخين ، ولكنهم لم يحددوا عنوانه .

ذكره حاجى خليفة فى « كشف الظنون » ، فقال : ومن بين كتب الطرطوشى **« كتاب يعارض به كتاب الاحياء للغزالى »** (٣) .

وقال الحميرى فى « صفة جزيرة الأندلس » عند ترجمته للطرطوشى :

---

(١) سراج الملوك ، ص ١٢٢ .
(٢) سراج الملوك ، ص ٣٤٩ .
(٣) وذكره أيضا : الزركلى فى الأعلام عند ترجمته للطرطوشى .

« وعاصر الغزالى ، **وله فى احيائه كلام** ، وكان منحرفا عنه سيىء الاعتقاد فيه » .

وذكر الضبى فى « بغية الملتمس » ، فقال :

« وله كتاب كبير يعارض به كتاب الاحياء ، رأيت منه قطعة يسيرة » وقد بحثت كثيرا عن هذا الكتاب فلم أعثر له على أثر ، وانما عثرت على ما يفيد أن الطرطوشى كتب رسالة لصديق له يذكر فيها أنه اجتمع بالغزالى وتحدث اليه وناقشه فى موضوعات كثيرة ، ويشير الى رأيه فى الاحياء وينقده .

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشى لم يقابل الغزالى فى بغداد : وأنه حاول مقابلته فى بيت المقدس فلم يوفق ، ولكننا نرجح أن العالمين تقابلا فى مدينة الاسكندرية بعد ذلك ، فان المراجع التى ترجمت للغزالى تذكر أنه زار الاسكندرية فى السنوات الأخيرة من حياته ، وأنه كان يزمع السفر منها الى بلاد المغرب لزيارة الأمير يوسف بن تاشفين ، ولكنه تلقى أثناء مقامه من الاسكندرية خبرا بموت يوسف بن تاشفين : فعدل عن عزمه ، وعاد الى وطنه « طوس » .

ونحن نعرف أن يوسف بن تاشفين توفى سنة ٥٠٠ هـ ، وفى هذه السنة كان الطرطوشى يقيم فى الاسكندرية ، فلابد اذن أن يكون العالمان قد تقابلا فى الاسكندرية فى هذه السنة .

وللسيد محمد المرتضى الزبيدى ـ وهو واحد من كبار علماء مصر فى القرن الثامن عشر ـ شرح كبير لكتاب « احياء علوم الدين » يقع فى عشرة أجزاء كبار ، سماه : « اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احياء علوم الدين » ، وقد عرض فى مقدمته للعلماء السابقين الذين تناولوا احياء الغزالى بالدراسة أو بالمدح والتقريظ ، أو بالنقد والتجريح ، وذكر من بين الناقدين العالمين المالكيين : المازرى ، والطرطوشى ، وعرض أولا كلام المازرى فى الاحياء ، ثم ناقشه ورد عليه ، واستطرد فعرض لكلام الطرطوشى وقال :

« هذا كلام المازرى ، وسبقه الى قريب منه من المالكية الامام أبو الوليد الطرطوشى نزيل الاسكندرية ، فذكر فى رسالته الى أبى مظفر (١) :

« فأما ما ذكرت من أمر الغزالى فرأيت الرجل وكلمته ، فرأيته من أهل العلم ، قد نهضت به فضائله ، واجتمع فيه العقل والفهم وممارسة العلوم طول عمره ، وكان على ذلك طول زمانه ، ثم بدا له البعد عن طريق العلماء ، فدخل فى غمار العمال ، ثم تصوف ، فهجر العلوم وأهلها ، ودخل فى علوم الخواطر وأرباب القلوب ووساوس الشيطان ، ثم شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، وجعل يطعن على الفقهاء والمتكلمين ، فلقد كاد ينسلخ من الدين ، فلما عمل الاحياء عمد يتكلم فى علوم الأحوال ومرامز الصوفية ، وكان غير أنيس بها ، ولا خبير بمعرفتها ، فسقط على أم رأسه ، وشحن كتابه بالمعلومات .. الخ » .

هذه هى الفقرة التى نقلها المرتضى الزبيدى لعرض رأى الطرطوشى فى الغزالى واحيائه ، ومنها نفهم أن الطرطوشى لم يؤلف كتابا فى معارضة الاحياء ، وانما كتب رسالة الى صديق له هو ابن مظفر أبدى فيها رأيه فى الغزالى وكتابه ، ومنها يتأكد كذلك استنتاجنا السابق أن العالمين تقابلا ودارت بينهما مناقشات ومساجلات علمية .

ولم يستطع الطرطوشى فى أول الرسالة أن يخفى اعجابه بالغزالى فصرح بأن الرجل من أهل العلم ، وقد اجتمع فيه العقل والفهم

(١) أنظر ما كتبه العالم الاسبانى **Asin** عن هذه الرسالة فى :

asin (m) : Un Laquin siciliano lontradicor de algazab (lentenario della nascita de m chele amari : Estrauo. Palermo, 1910).

وممارسة العلوم طول عمره ، ولكنه لم يلبث أن استدرك فقال ما قال يجرح الرجل وكتابه .

والذى نراه أن الطرطوشى كان متحاملا ومتجنيا على الغزالى ، وتفسير هذا التحامل بسيط ، فهو نوع من الغيرة التى تنشأ عادة بين العلماء المتعاصرين : فالرجلان ولدا فى سنة واحدة ، وان كان الغزالى ولد فى طوس فى أقصى الشرق ، والطرطوشى ولد فى طرطوشة فى أقصى الغرب ؛ والغزالى شافعى ، والطرطوشى مالكى ؛ والرجلان اشتغلا بالعلم وتحصيله ودراسته وتدريسه فى الحقبة الأولى من حياتهما ، ثم ركنا الى حياة الزهد والتصوف حتى عدا من المتصوفة الزاهدين فى أخريات حياتهما ؛ والطرطوشى أدرك شهرة وذاع صيته فى الشام أولا ثم فى الاسكندرية ثانيا ؛ والغزالى طبق ذكره الآفاق فى جميع أنحاء العالم الاسلامى ، وخاصة بعد تأليفه « المنقذ من الضلال » و « احياء علوم الدين » ، وقد سبقته شهرته الى الاسكندرية قبل وصوله اليها ، ولم يكن للطرطوشى وقتذاك مؤلف يستطيع أن يطاول به « الاحياء » .

لهذا جاء نقد الطرطوشى للغزالى وكتابه ضعيفا متهافتا ، لا يزيد على أن يضم بعض الاتهامات التى لا تقوم على دليل ، ولهذا لم يعن المرتضى الزبيدى بالرد على كلام الطرطوشى كثيرا ، بل نقل ردا لعالم آخر عليه ، نقل رد السبكى الذى أورده فى « طبقات الشافعية » ، قال السبكى :

« وأما كلام الطرطوشى فمن الدعاوى العارية عن الدلالة ، ولا أدرى كيف استجاز فى دينه أن ينسب هذا الحبر الى أنه دخل فى وساوس الشيطان ، ولا من أين اطلع على ذلك .

وأما قوله : شابها بآراء الفلاسفة ورموز الحلاج ، فلا أدرى أى رموز فى هذا الكتاب غير اشارات القوم التى لا ينكرها عارف ، وليس للحلاج رموز يعرف بها .

وأما قوله : كاد ينسلخ من الدين ، فيا لها كلمة وقاه الله شرها .

وأما دعواه أنه غير أنيس بعلوم الصوفية ، فمن الكلام البارد ، فانه لا يرتاب ذو نظر بأن الغزالى كان ذا قدم راسخ فى التصوف ، وليت شعرى ان لم يكن الغزالى يدرى التصوف فمن يدريه ؟ !

وأما دعواه انه سقط على أم راسه ، فوقعة من العلماء بغير دليل ، فانه لم يذكر لنا بماذا سقط ، كفاه الله وايانا غائلة التعصب .

وأما الموضوعات فى كتابه ، فليت شعرى أهو واضعها حتى ينكر عليه ؟ !

ان هذا الا تعصب بارد وتشنيع بما لا يرتضيه ناقد » .

والحقيقة أن الغزالى اذا قورن بالطرطوشى يبزه ويتفوق عليه فى جميع النواحى ، فالغزالى امام مدرسة فكرية كبيرة ، وكان لآرائه وكتبه وفلسفته آثار جد واضحة على الفكر الاسلامى والمجتمع الاسلامى قرونا طويلة ، ولا يصح أن نأخذ نقد الطرطوشى هنا الا على أنه نوع من الغيرة التى تثيرها الخصومة بين العلماء المتعاصرين المتنافسين .

٦ ـ والكتاب السادس هو كتاب « **سراج الملوك** » :

وهو أهم كتبه جميعا وأقيمها ، وهو واحد من كتب الطرطوشى القليلة التى وصلتنا ، فان معظم كتبه قد فقدت للأسف ، وهو الكتاب الوحيد من بين هذه القلة الباقية الذى طبع أكثر من مرة ، والى سنة ١٩٥٩ لم يكن قد طبع من كتب الطرطوشى غير هذا الكتاب ، وفى هذه السنة (١٩٥٩) طبع له كتاب ثان هو « كتاب الحوادث والبدع » وسنتكلم عنه بالتفصيل فيما يلى :

وقد ذكرنا من قبل أن الطرطوشي ألف « سراج الملوك » بعيد اطلاق سراحه من المعتقل الذى حددت فيه اقامته فى الفسطاط ، وأنه ألفه فى الاسكندرية خلال سنة كاملة ، من شوال سنة ٥١٥ هـ الى شوال سنة ٥١٦ هـ ، وأنه قدمه هدية الى الوزير الذى أطلق سراحه وهو المأمون البطائحى ، وقال فى الاهداء — مشيدا بذكر هذا الوزير وعدله :

« ولما رأيت الأجل المأمون ، تاج الخلافة ، عز الاسلام ، فخر الأنام ، نظام الدين ، خالصة أمير المؤمنين ، أبا عبد الله محمد الآمدى ، أدام الله عزاز الدين نصره ، وأنفذ فى العالمين بالحق أمره ، وأوزع كافة الخلق شكره ، وكفاهم فيه محذوره وضره ، فقد تفضل الله تعالى به على المسلمين ، فبسط فيهم يده ، ونشر فى مصالح أحوالهم كلمته ، وعرف الخاص والعام يمنه وبركته ، وتقلد أمور الرعية ، وسار فيهم على أحسن قضية ، متحريا للصواب ، راغبا فى الثواب ، طالبا سبل العدل ومناهج الانصاف والفضل ، رغبت أن أخصه بهذا الكتاب ، رجاء لطف الله تعالى (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا ، وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا) ، ولتذكر فضائله ومحاسنه ما بقى الدهر ، كما قيل :

النـــاس يهـــدون على قدرهم
لكننى أهـــدى على قـــدرى
يهدون ما يفنى ، وأهـــدى الذى
يبقى عـــلى الأيام والدهـــر .

ثم يعلل الطرطوشي السبب فى اهدائه الكتاب الى المأمون ، ويلمح الى موقف الأفضل منه ومن العلماء ، ويدعو الوزير الجديد الى أن

يقف موقفا آخر من العلماء ، فهم السياج الذى يمنع الحكام من الظلم ، ومن أن يسدروا فى غيهم ، فيقول :

« ان العلم عصمة الملوك والأمراء ، ومعقل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم على الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله » .

والطرطوشى فى هـــذا الكتاب من الطلائع ، ومن رواد الفكر الاسلامى الأوائل الذين حاولوا التأليف فى علم السياسة وفن الحكم ، فالعلماء المسلمون الذين ألفوا فى هذا الفن قليلون ، منهم : الغزالى فى كتابه « الذهب المسبوك فى نصـــيحة الملوك » والطرطوشى فى كتابه « سراج الملوك » ، والشيزرى فى كتابه « المنهج المسلوك فى سياسة الملوك » ، وابن طباطبا فى كتابه « الفخرى فى الآداب السلطانية » وغيرهم .

وخيرهم جميعا ابن خلدون فى مقدمته .

وقد أشار ابن خلدون فى مقدمته الى كتاب الطرطوشى « سراج الملوك » ، واعترف أنه من المفكرين القلائل الذين سبقوه بالتأليف فى علم الاجتماع أو العمران ، ولكنه قال ان الطرطوشى أحسن فى تقسيم كتابه وتحديد موضوعاته ، ولكنه لم يحسن علاج هــذه الموضوعات أو التفكير فيها أو عرضها ، أو هو ــ على حد قول ابن خلدون ــ :

« حوم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ولا استوفى مسائله » .

والطرطوشى قسم كتابه « سراج الملوك » الى أربعة وستين فصلا ، جعل الفصل الأول فى « مواعظ الملوك » ، والفصل الثانى فى « مقامات العلماء والصالحين عند الأمراء والسلاطين » ، ومن بينها فصل لمنافع السلطان ومضاره ، وفصل آخر « لمعرفة الخصال التى هى قواعد السلطان » ، وفصل للوزراء .. وهكذا ، وعقد

فصلا خاصا للحديث عن « علاقة السلطان بالجند وبيت المال » ، وفصلا للحديث عما يصلح الرعية من الخصال ، وما الى هذا من موضوعات كثيرة تتصل بسياسة الملك وفن الحكم وتدبير أمور الرعيـــة .

ومنهج الطرطوشى فى تأليف هذا الكتاب أن يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الخلقى الذى يرى أن يتحلى به صاحب الوظيفة سواء أكان ملكا أم وزيرا أم واليا أم قاضيا ، وقد يشرح هذا المبدأ شرحا يسيرا ولكنه لا يطيل بل يسرع بايراد كثير من الحكم والأمثال والقصص التى تؤيد صحة هذا المبدأ ، وهو يقتبس هذه الحكم والقصص والنوادر من سير الأنبياء والخلفاء والصالحين ، ومن سير الملوك والحكماء السابقين من مختلف الأجناس والعصور .

فالطرطوشى فى كتابه واحد من المفكرين الذين لا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، بل هو يراهما شيئا واحدا متفقا ، وهو يشبه فى هذا فلاسفة اليونان القدامى ومفكريهم ، ويختلف اختلافا كبيرا عن فلاسفة أوربا فى عصر النهضة والعصر الحديث من أمثال : هوبز ، ولوك ، وروسو ، وهيجل ، وماركس ، الذين كانوا يفرقون بين السياسة والأخلاق ، ويفكرون فى مشاكل السياسة وموضوعاتها تفكيرا مستقلا عن تفكيرهم الخلقى ، وهو يشبه فى هذا أنداده من المفكرين الاســـلاميين ، فهم جميعا لم يفـــرقوا فى مؤلفاتهم بين السياسة والأخلاق .

وابن خلدون يعترف للطرطوشى بفضل الأسبقية فى ارتياد هذا الموضوع ، ولكنه أراد فى نفس الوقت أن يتعالى عليه ، وأن يفخر بما آتاه الله من نعمة التوفيق فى مقدمته ، قال :

« وكذلك حوم أبو بكر الطرطوشى فى كتابه سراج الملوك ، وبوبه على أبواب تقرب من أبواب كتابنا هذا ومسائله ، ولكنه لم يصادف فيه الرمية ، ولا أصاب الشاكلة ، ولا استوفى المسائل ، ولا أوضح الأدلة ؛

وانما يبوب للمسألة ، ثم يستكثر من الأحاديث والآثار ، وينقل كلمات متفرقة لحكماء الفرس وغيرهم من أكابر الخليقة ، ولا يكشف عن التحقيق قنـــاعا ، ولا يرفع بالبراهين الطبيعية حجاجا ، وانما هو نقل وترغيب شبيه بالمواعظ ، **وكأنه حوم على الغرض ولم يصادفه ، ولا تحقق قصده ، ولا استوفى مسائله ، ونحن ألهمنا الله ذلك الهاما »** .

وانصافا للطرطوشي نقول ان هدفه من تأليف سراج الملوك لم يكن كهدف ابن خلدون من تأليف المقدمه هدفا علميا خالصا ، وانما كان هدفه فنيا ، يريد أن يؤثر فى النفوس بالقصة يرويها ، أو المثل والحكمة والموعظة الحسنة ، يلمح ولا يصرح .

حقيقة ان الطرطوشى لم يكن ندا لابن خلدون ، ولكن من العدل أن يقاس نجاح المؤلف بمقدار نجاحه فى تحقيق أهدافه التى كان يتطلع اليها عند وضع مؤلفه ، والحقيقة أن « سراج الملوك » كتاب حافل بالقصص المتعة والأخبار الطريفة والنوادر الشائقة ، كما ضمنه الطرطوشى كثيرا من تجاربه المفيدة ونظراته السديدة وآرائه القيمة ، مما يدل على اطلاع واسع ومعرفة شاملة لمسائل الفقه والشريعة والتاريخ والأدب .

ومن الفصول القيمة فى هذا الكتاب الفصل الذى عقده للدلالة على فضل الولاة والقضاة اذا عدلوا ، فهو يقول فى أوله :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة ، كما أن خيره يعم ، كذلك ليس دون رتبة السلطان الجائر الشرير رتبة لشرير ، لأن شره يعم .

وكما أن بالسلطان العادل تصلح البلاد والعباد ، كذلك بالسلطان الجائر تفسد البلاد والعباد ، وتقترف المعاصي والآثام ، وذلك أن السلطان اذا عدل انتشر العدل فى رعيته ، فأقاموا الوزن بالقسط ، وتعاطوا

الحق فيما بينهم ، واذا جار السلطان انتشر الجور وعم العباد ، فرقت أديانهم ، واضمحلت مرءاتهم ، ففشت فيهم المعاصى ، وذهبت أمانتهم ، فضعفت النفوس ، وقنطت القلوب ، فمنعوا الحقوق ، وتعاطوا الباطل ، وبخسوا المكيال والميزان .. فرفعت منهم البركة ، وأمسكت السماء غيثها .. » .

ويروى الطرطوشى حادثة من مشاهداته بالاسكندرية للدلالة على أن السلطان اذا جار وظلم انتشر الجور وعم البلاد ، فرفعت البركة ، وقل الرزق ، يقول :

« وشهدت أنا بالاسكندرية والصيد فى الخليج مطلق للرعية ، والسمك فيه يغلى المـــاء به كثرة ، ويصيده الأطفال بالخرق ، ثم حجره الوالى ومنع الناس من صيده ، فذهب السمك حتى لا يكاد يرى فيه الا الواحدة الى يومنا هذا » .

ويعلق على هذا الخبر مرة أخرى بقوله :

« وهكذا تتعدى سرائر الملوك وعزائمهم ومكنون ضمائرهم الى الرعية ، أن خيرا فخيرا ، وان شرا فشر » .

ومن كلماته القيمة فى وصف خطورة منصب السلطان والمهام الملقاة على عاتقه :

« .. الخلق فى شغل عنه وهو مشـــغول بهم ، والرجل يخاف عدوا واحدا ، وهو يخاف ألف عدو ، والرجل يضيق بتدبير أهل بيته وايالة ضيعته ، وهو مدفوع لسياسة أهل مملكته ، وكلما رتق فتقا من حواشى مملكته انفتق آخر ، وكلما لم منها شاعثا رث آخر .. » .

وهو يبرهن على ضرورة قيام الحكومات بالاشراف على شؤون

الرعية ، والزام كل فرد حقوقه وحدوده ، والانتصاف للمظلوم من الظالم بقوله :

« جبلت الخلائق علـــى حب الانتصاف وعـــدم الانصاف ، ومثلهم بلا سلطان ، كمثل الحـــوت فى البحر ، يزدرد الكبير الصـــغير ، فمتى لم يكن لهم سلطان قاهر لم ينتظم لهم أمر » .

ومن عجب أن الطرطوشى الذى غمز الغزالى غمزته التى أشرنا اليها ، ونقد موسوعته الضخمة « احياء علوم الدين » قد تأثر به وحاكاه عندما أراد أن يؤلف كتابه « سراج الملوك » ، فقد بدا لى أن أقارن بين كتاب الغزالى « الذهب المسبوك فى نصيحة الملوك » وكتاب الطرطوشى « سراج الملوك » فتبين لى أن منهج الرجلين واحد، فكلاهما يمزج تفكيره الأخلاقى بتفكيره السياسى مزجا تاما ، وكلاهما يبدأ الفصل بتقرير المبدأ الأخلاقى تقريرا موجزا ، ثم يورد من قصص الأقدمين وحكمهم وأمثالهم ما يبرهن به على صحة هـــذا المبدأ .

والغزالى أهدى كتابه الملك سلجوقى هو السلطان محمد بن ملك شاه ، والطرطوشى أهدى كتابه لوزير فاطمى كان يتمتع بسلطان الملك المطلق ، هو المأمون البطائحى .

وقد يتردد الدارس الناقد طويلا قبل أن يحكم على بعض الفقرات المتشابهة فى الكتابين بأنهما من باب توارد الخواطر .

وسنورد فيما يلى مثالين يؤيدان ما لاحظناه من تشابه بين الكتابين فى بعض الأفكار ، وفى التعبير عنها .

يقول الغزالى عند حديثه عن مكانة العلماء ، وما يجب على الملوك والولاة من تقربهم اليهم واستشارتهم والأخذ بنصيحتهم :

« أيها السلطان : خطر الولاية عظيم ، وخطبها جسيم ، ولا يسلم الوالى الا بمقاربة علمـــاء الدين

ليعلموه طرق العدل ، ويسهلوا عليه خطر هـــذا الأمر » .

ويقول الطرطوشي في هذا المعنى :

« ان العلم عصمة الملوك والأمـــراء ، ومعقـــل السلاطين والوزراء ، لأنه يمنعهم من الظلم ، ويردهم الى الحلم ، ويصدهم عن الأذية ، ويعطفهم عــــلى الرعية ، فمن حقهم أن يعرفوا حقه ، ويكرموا حملته ، ويستبطنوا أهله » .

ويقول الغزالي عند حديثه عن أثر السلطان العادل أو السلطان الجائر في الرعية وعمران البلدان :

« ينبغي أن تعلم أن عمارة الدنيـــا وخرابها من الملوك ، فاذا كان السلطان عادلا عمرت الدنيا وأمنت الرعايا .. ، واذا كان السلطان جائرا خربت الدنيا » .

ويقول الطرطوشي في نفس المعنى :

« ليس فوق رتبة السلطان العادل رتبة كما أن خيره يعم ، وكما ان بالسلطان العادل تصلح البـــلاد والعبـــاد ، كذلك بالسلطان الجائر تفســـد البلاد والعباد » .

ولكن من الانصـــاف أن نذكر أن كتاب « الذهب المســـبوك » للغزالي موجز ، فقد قسمه الى سبعة أبواب ، تناول فيها أمهات المسائل ، أما كتاب « سراج الملوك » للطرطوشي فكتاب ضخم مفصل قسمه الى أربعة وستين بابا ، وقد تناول فيه كثيرا من الموضوعات التي لم يعرض لها الغزالي في كتابه ، وحصيلة الطرطوشي في سراج الملوك من القصص والنوادر والحكم والأخبار التاريخية والمسائل الفقهية أغنى وأوفر من حصيلة الغزالي في كتابه « الذهب المسبوك » .

٧ ـ والكتاب السابع هو « **كتاب الحوادث والبدع** » :

أو كتاب « بدع الأمور ومحدثاتها » ـ كما تسميه بعض المراجع ، ذكره : ابن خلكان فى « الوفيات » ، وابن فرحون فى « الديباج المذهب » ، والحميرى فى « صفة جزيرة الأندلس » ، والمقرى فى « نفح الطيب » ، وحاجى خليفة فى « كشف الظنون » ، وبروكلمان فى « تاريخ الآداب العربية » .

وأشار الأخير الى أنه توجد من هذا الكتاب نسخة خطية وحيدة فى المكتبة القومية بمدريد تحت رقم ٥٤٣١ .

وهذا هو ثانى كتاب طبع من مؤلفات الطرطوشى ، نشره أخيرا فى سنة ١٩٥٩ الأستاذ محمد الطالبى من علماء تونس نشرة علمية محققة ضمن « مطبوعات كتابة الدولة للتربية القومية » بالجمهورية التونسية .

وذكر الأستاذ الناشر فى مقدمته أنه توجد نسخة خطية ثانية من الكتاب فى المكتبة الأحمدية بجامع الزيتونة ضمن مجموع خطى رقم ٣٣٨٧ ؛ وقد كتبت هذه النسخة فى سنة ١٠٥٨ ونقلها كاتبها عن نسخة أخرى عتيقة مؤرخة بسنة ٨٤٩ هـ ، وتقع هذه النسخة فى ست وخمسين صفحة ، وتشتمل كل صفحة على نحو الثلاثين سطرا .

أما نسخة مدريد فتوجد هى كذلك ضمن مجموع يضم مؤلفات أخرى من بينها مؤلفان آخران للطرطوشى ، هما : كتاب « بر الوالدين » ، ورسالة « تحريم الغناء واللهو على الصوفية » ، وسنعرض لذكرهما فيما يلى :

ومخطوطة مدريد (١) من كتاب « الحوادث والبدع » تقع فى ٦١ صفحة ، فى كل صفحة ٢٨ سطرا .

وقد اعتمد الأستاذ الطالبى على هاتين المخطوطتين عند طبع الكتاب ، وقدم له بمقدمة فى ١٣ صفحة ترجم فيها للطرطوشى ترجمة مختصرة ، ووصف المخطوطتين ، وحلل الكتاب وبين أهميته .

والكتب التى ألفت فى موضوع البدع قليلة ، أقدمها كتاب « الرد على أهل البدع » لمحمد بن سحنون (٢٠٢ — ٢٥٦ هـ) ، لم يصلنا ، وانما ذكره القاضى عياض فى « المدارك » (٢) .

ولمعاصره أبى عبد الله محمد بن وضاح القرطبى (١٩٧ — ٢٨٦) كتاب « البدع والنهى عنها » (٣) ، نشره محمد أحمد دهمان ، وطبع فى دمشق سنة ١٣٤٩ هـ (١٩٢٨) .

ولأبى زكريا يحيى بن عون المتوفى سنة ٢٩٨ هو كتاب فى الرد على أهل البدع ، ذكره القاضى عياض « فى المدارك » كذلك ، ولا وجود له .

---

(١) انظر المقال الذى كتب عن هـذه المخطوطة فى المجلة الملكية للأكاديمية التاريخية باسبانيا :

(Il Boletin de la Real Academia de la Historia. T. LXII. cuad. IV. Abril 1913. P. 238).

وأنظر كذلك مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب « سراج الملوك » .

(Alarcon. m. : Lampora de los principes por Abubequer de Tortosa - trad. Espan - , madrid. 1930 - 1931).

(٢) أنظر مقدمة الطالبى لكتاب « الحوادث والبدع » ، ص ٧ : وانظر ترجمة محمد بن سحنون فى : (المالكى : رياض النفوس ، نشر الدكتور حسين مؤنس ، ج ١ ، ص ٣٤٥ — ٣٦٠) .

(٣) مقدمة الطالبى ، ص ٦ ، انظر ترجمة ابن وضاح فى (ابن الفرضى : تاريخ العلماء ، القاهرة ١٩٥٤) .

وبذلك يكون أول كتاب وصلنا فى موضوع البدع هو كتاب ابن وضاح القرطبى ، والكتاب الثانى هو كتاب الطرطوشى « الحوادث والبدع » .

وقد عرض لموضوع البدع بعد الطرطوشى مؤلفون آخرون ، نذكر من بينهم المؤرخ الدمشقى ــ صاحب كتاب الروضتين وذيله ــ شهاب الدين أبا محمد عبد الرحمن بن اسماعيل المعروف بأبى شامة ، والمتوفى سنة ٦٦٥ هـ ، وله كتاب « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، نشره محمد فؤاد منقادة الطرابلسى ، وطبع فى القاهرة سنة ١٩٥٥ ، واعتمد فيه كثيرا على كتاب « الحوادث والبدع » للطرطوشى .

ومنهم أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى القيروانى التلمسانى ، المشهور بابن الحاج الفاسى ، والمتوفى بالقاهرة سنة ٧٣٧ هـ ، وقد عالج موضوع البدع فى كتابه الكبير « المدخل » ، وأشار فيه الى كتاب الطرطوشى وأفاد منه .

ومنهم أبو اسحاق ابراهيم بن موسى بن محمد اللخمى الشاطبى ثم الغرناطى (١) ، المتوفى سنة ٧٩٠ هـ ، وله كتاب « الاعتصام » فى البدع ، نشره وقدم له الشيخ محمد رشيد رضا فى ثلاثة أجزاء ، وطبع فى مطبعة المنار بالقاهرة سنة ١٣٣١ هـ (١٩١٣) .

هذه هى الكتب التى استطعت أن أعثر عليها فى موضوع البدع ، وهى كلها ــ فيما عدا كتاب الباعث لأبى شامة ــ لمؤلفين مغاربة أو أندلسيين وطنا ، مالكيين مذهبا ، وليس هذا من باب الاتفاق المحض ، بل ان السبب يكمن فى انتسابهم لهذا الوطن ولهذا المذهب ، فالمغاربة منذ عرفوا مذهب مالك وهم شديدو التعلق به ، فقد وجدوا فيه العاصم من مساوىء الخلافات المذهبية التى أشاعت الفرقة فى المشرق الاسلامى ، ومذهب مالك يلتزم القرآن

---

(١) انظر ترجمته فى : (أحمد بابا التنبكى : نيل الابتهاج بتطريز الديباج) و (سركيس : معجم المطبوعات العربية) .

والسنة التزاما تاما ، ويأبى ما عداهما ، ولذلك اعتبر كل انحراف عن أحكام القرآن والسنة بدعة ، ولهذا حرص الفقهاء والعلماء المغاربة والأندلسيون على تتبع هذه البدع وحصرها وتفنيدها والرد عليها .

وقد آمن الطرطوشى ، ومن نهج نهجه ممن ألفوا فى البدع أن العصر الذهبى هو عصر النبى عليه السلام وصحابته الأكرمين ، وأن كل اصلاح يجب أن يكون بالرجوع الى مثل هذا العصر الأول ، وأن كل انحراف عن هذه المثل يعتبر بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار .

وقد عرف الطرطوشى البدعة ـ فى كتابه هذا ـ بقوله :

« أصل هذه الكلمة من الاختراع ، وهو الشيء يحدث من غير أصل سبق ، ولا مثال احتذى ، ولا ألف مثله ، ومنه قولهم : ابتدع الله الخلق ، أى خلقهم ابتداء ، ومنه قوله تعالى :

« بديع السموات والأرض » .

وقوله :

« قل ما كنت بدعا من الرسل » ، أى لم أكن أول رسول الى أهل الأرض .

وهذا الاسم يدخل فيما تخترعه القلوب ، وفيما تنطق به الألسنة ، وفيما تفعله الجوارح .. الخ » .

والطرطوشى يشرح فى مقدمة « الحوادث والبدع » موضوع الكتاب ، والهدف من تأليفه ، ويقسم البدع نوعين : نوع اتفق المسلمون جميعا على أنه بدعة مستحدثة ، ونوع اشتبه أمره على الناس ، فظنوه عبادات وقربات ، وحسبوه طاعات وسننا ، وهو ليس كذلك ، وهذا النوع الثانى هو الذى أراد الطرطوشى أن يجلو أمره للمسلمين لتزول الشبهات ، قال :

« هذا كتاب أردنا أن نذكر فيه جملا من بدع الأمور ومحدثاتها التى ليس لها أصل فى كتاب الله وسنته ، ولا اجماع ولا غيره ، فألفيت ذلك ينقسم قسمين :

قسم يعرفه الخاصة والعامة أنه بدعة محدثة ، اما محرمة واما مكروهة ، وقسم يظنه معظمهم ــ الا من عصم الله ــ عبادات وقربات وطاعات وسننا .

أما القسم الأول فلم نتعرض لذكره ، اذ كفينا مؤونة الكلام فيه لاعتراف فاعله أنه ليس من الدين .

وأما الثانى فهو الذى قصدنا جمعه وايقاف المسلمين على فساده ووبال عاقبته » .

وقد قسم الطرطوشى بحثه الى أربعة أبواب :

ــ الباب الأول : فيما انطوى عليه الكتاب العزيز من الأمور التى ظاهرها سلم جرت الى هلك .

ــ والباب الثانى : فيما اشتملت عليه السنة من النهى عن محدثات الأمور .

ــ والباب الثالث : فى أساليب الصحابة فى كيفية ضبطهم للقانون الذى تحفظ به قواعد الدين وتموت البدع .

ــ والباب الرابع : فى نقد ما حدث من ذلك فى الاسلام ، وتنصيص العلماء على تحريمها وكراهتها .

وقد فرع المؤلف هذه الأبواب بعد ذلك الى فصول وفروع ، ومعظم الحوادث التى تخضع لنقد المؤلف مما يتصل بالعبادات ، وبعضها مما يتصل بسلوك المسلمين فى مجتمعهم ، وان كان من العسير فى الواقع أن نفرق بين هذه وتلك ، فالمجتمع فى عصر الطرطوشى مجتمع اسلامى ، يخضع فى كل صغيرة وكبيرة لأحكام الشريعة الاسلامية ، والدين الاسلامى دين عبادات ومعاملات .

ومن الموضوعات التى تناولها الطرطوشى فى كتابه موضـــوع « صلاة التراويح وأحكامها » وهل الأفضل أن تصلى فى البيوت أو فى المساجد والجماعات ، واذا صلاها المصلى فى بيته فهل الأفضل أن يصليها منفردا أو يصليها بأهل بيته واخوانه ان حضروا . .

وفى الباب الرابع يفصل الطرطوشى الحديث عن قراءة القرآن وكتابته ، وعن آداب المسجد وقراءة القصص فيه ، وعن الاحتفال بليلة النصف من شهر شعبان وصيام شهر رجب ؛ ثم ختمه بايراد مجموعة من البدع المستحدثة فى التعزية والمآتم والجنائز وغيرها .

والمؤلف يستنكر قراءة القرآن بالألحان ، ويحتذى فى هذا حذو الامام مالك الذى يقول :

« ولا تعجبنى القراءة بالألحان ، ولا أحبهـــا فى رمضان ولا فى غيره ، لأنه يشبه الغناء ويضحك بالقرآن ، ويقال : فلان أقرأ من فلان ، وبلغنى أن الجـــوارى يعلمن ذلك كما يعلمن الغناء ، أترى هذا من القراءة التى كان يقرأ بها رســــول الله صـــلى الله عليه وسلم ؟ ! » (١) .

وقد أورد الطرطوشى فى هذا الفصل معلومات تفصيلية طريفة وقيمة عن بدء القراءة بالألحان والمشتغلين بها ، والمصطلحات التى وضعوها لهذا الفن ، وعن الألحان وأنواعها ومسمياتها . . الخ قال :

« فأما أصحاب الألحان فانما حدثوا فى القرن الرابع (٢) ، منهم : محمد بن سعيد صاحب الألحان ، والكرمانى ، والهيثم ، وأبان . . فكانوا مهجورين عند العلماء ، فنقلوا القراءة الى أوضاع لحون الأغانى ، فمدوا المقصور ، وقصروا الممدود ، وحركوا الساكن ،

---

(١) الحوادث والبدع ، ص ٧٥ .
(٢) كذا فى الأصل ، والصواب : القرن الثالث .

وسكنوا المتحرك ، وزادوا فى الحرف ونقصوا فيه ، وجزموا المتحرك ، وحركوا المجزوم ، لاستيفاء نغمات الأغانى المطربة .

ثم اشتقوا لها أسماء ، فقالوا :

- شذر
- ونبر
- وتفريق
- وتعليق
- وهز
- وخز
- وزمر
- وزجر
- وحذف
- وتشريق
- واسجاح
- وصياح

ثم يقولون : مخرج هذا الحرف من الأنف ، وهذا من الرأس ، وهذا من الصدر ، وهذا من الشدق :

- فما خرج من القحف فهو صياح .
- وما خرج من الجبهة فهو زجر .
- وما خرج من اللهوات فهو نبر .
- وما خرج من الأنف فهو زمر .
- وما خرج من الحلق فهو خرير وشذر .
- وما خرج من الصدر فهو هرير .

وسموها لحونا .

ثم جعلوا لكل لحن منها اسما مخترعا ، فقالوا :

ـ « **اللحن الصقلبى** » : فاذا قرأوا قوله تعالى : « واذا قيل ان وعد الله حق » ، يرقصون فى هذه الآية كرقص الصقالبة بأرجلها وفيها الخلاخيل ، ويصفقون بأيديهم على ايقاع الأرجل ، ويرجعون الأصوات بما يشبه تصفيق الأيدى ورقص الأرجل ، كل ذلك على نغمات متوازنة .

ومن ذلك : « **الرهب** » : أن نظروا الى كل موضع فى القرآن فيه ذكر المسيح ، كقوله تعالى : « انما المسيح عيسى بن مريم » ، وكقوله تعالى : « واذ قال الله يا عيسى بن مريم » ، فمثلوا أصواتهم فيه بأصوات النصارى والرهبان والأساقفة فى الكنائس .

ومن ألحانهم فى القرآن :

- النبطى .
- والرومى .
- والحسانى .
- والمكسى .
- والاسكندرانى .
- والمصرى .
- والكاروندى .
- والراعى .
- والديباجى .
- والياقوتى .
- والعروسى .
- والزرجون .
- والمرجى .
- والمجوسى .
- والزنجى .
- والمنمنم .
- والسندى .

وغيرها ، كرهنا ذكر التطويل بها .

فهذه أسماء إبتدعوها فى كتاب الله تعالى ، « ما أنزل الله بها من سلطان » ؛ فالتالى منهم والسامع لا يقصدون فهم معانيه من أمر أو نهى ، أو وعد ، أو وعيد ، أو وعظ ، أو تخويف ، أو ضرب مثل ، أو اقتضاء حكم ، أو غير ذلك مما أنزل به القرآن ؛ وانما هو للذة والطرب والنغمات والألحان ، كنقر الأوتار ، وأصوات المزامير ، كما قال الله ــ عز وجل ــ يذم قريشا : « وما كان صلاتهم عند البيت الا مكاء وتصدية » ، وانما أنزل القرآن لتتدبر آياته وتفهم معانيه .

قال الله تعالى : « كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته » .

وقال تعالى : « أفلا يتدبرون القرآن » .

وقال : « انما المؤمنون الذين اذا ذكر الله وجلت قلوبهم ، واذا تليت عليهم آياته زادتهم ايمانا » .

وهذا يمنع أن يقرأ بالألحان المطربة والمشبهة للأغانى ، لأن ذلك يثمر ضد الخشوع ، ونقيض الخوف والوجل ، وقوله تعالى منهم : « واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق » ، وهذا يفيد الأمر بتلاوته على هذا الوجه ، وأن بكاءهم انما كان مما فهموا من معانيه ، لا من نغمات القارىء ، فأين هذا من دق الرجل ، وثنى العطف ، وتحريك الرأس ، والصياح والزعق ، والمكاء ، والتصدية ؟ !

قال الله تعالى :

« لو أنزلنا هذا القرآن على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله » ، فليت شعرى ما الذى يورث خشية الله تعالى ؟ ألحان الكرمان ونغمات الترمذى ؟ ! أو فهم معانيه وتدبر آياته واستخلاص حكمه وعجائب مضمونه ؟ .. » .

وعلى هذا النمط يسير الطرطوشى فى كتابه ، فينص على البدع والمحدثات واحدة بعد واحدة ، ثم يبين وجه مخالفتها للشريعة ولمثل الحياة فى صدر الاسلام ، مستشهدا على بطلانها بالقرآن والأحاديث النبوية تارة ، وبأداء الصحابة وعلماء الاسلام ـ وخاصة الامام مالك وتلاميذه ـ تارة أخرى .

والذى نأخذه على الطرطوشى أنه وأنداده من فقهـــاء عصره لم يرتفعوا بمقاييسهم الى دعائم الاسلام ومثله الروحية العليا ، وانما نزلوا بها ـ فى كثير من الأحيان ـ الى أمور كثيرة مما يمس سلوك الانسان فى حياته العادية ؛ فعد الطرطوشى من البدع :

« اتخاذ الألوان ، والأكل على الخوان ، واستعمال الطيب فى آنية من الفضة » .

وعد منها :

« الانذار (أى الاعلان) للعرس وللجنازة للمباهاة والتفاخر لكثرة الناس ، وكذلك الانشاد ورفع الصوت عند حمل الجنازة » .

وعد منها :

« دخول الحمام للنساء مع الكتابيات بغير مئزر ، والمسلمين مع الكفار فى الحمام » .

وعد منها :

« شرب الماء غير مص ، وأكل اللحم غير نهش » بل انه اعتبر « امتعاط العمائم » بدعة « والامتعاط هو التعمم دون الحنك » .

وعنده : أن « اسبال الثوب تحت الكعبين حرام لا يجوز » .

فالكتاب لهذا لا يعتبر مرجعا فقهيا وحسب ، بل هو كذلك مرجع طيب لدراسة المجتمع الاسلامى فى أوائل القرن السادس

الهجرى (١٢ م) ، فقد ألف الطرطوشى كتابه هذا أثناء مقامه فى مدينة الاسكندرية ، وبعد سنة ٥٠٠ هـ بقليل ، أو بعد سنة ٤٨٠ هـ على وجه التحديد ، فقد نقل عن أحد علماء بيت المقدس أن صلاة الرغائب التى تصلى فى النصف من شعبان ـ وهى عنده احدى البدع ـ استحدثت فى القدس لأول مرة فى سنة ٤٤٨ هـ ، قال :

« وأخبرنى أبو محمد المقدسى قال : لم يكن عندنا ببيت المقدس قط صلاة الرغائب هذه التى تصلى فى رجب وشعبان ، وأول ما حدثت عندنا فى أول سنة ثمان وأربعين وأربعمائة ، قدم علينا فى بيت المقدس رجل من نابلس يعرف بابن أبى الحمراء ، وكان حسن التلاوة ، فقام فصلى فى المسجد الأقصى ليلة النصف من شعبان ، فأحرم خلفه رجل ، ثم انضاف اليهما ثالث ، ورابع ، فما ختمها الا وهم فى جماعة كثيرة ، ثم جاء فى العام القابل ، فصلى معه خلق كثير ، وشاعت فى المسجد ، وانتشرت الصلاة فى المسجد الأقصى وبيوت الناس ومنازلهم ، ثم استقرت كأنها سنة الى يومنا هذا ؛ فقلت له :

ـ فأنا رأيتك تصليها فى جماعة ؟ !

قال : نعم ، واستغفر الله منها » .

ثم يستطرد هـذا العالم فيذكر ان صـلاة الرغائب فى رجب استحدثت لأول مرة بعد سنة ٤٨٠ هـ :

« قال : وأما صلاة رجب فلم تحدث عندنا فى بيت المقدس الا بعد سنة ٤٨٠ ثمانين وأربعمائة ، وما كنا رأيناها ولا سمعنا بها قبل ذلك » .

والطرطوشى فى نقده ينظر نظرة واسعة الى العالم الاسلامى ـ مشرقه ومغربه ـ ، فيأتى بالشواهد مرة من وطنه الأصـلى الأندلس ، ومرة ثانية من المغرب ، ومرة ثالثة من بيت المقدس ،

ومرة رابعة من الاسكندرية وطنه الثانى وهكذا ، وميزة هـذه الشواهد أنها تعطى صورا من المجتمع فى مختلف أنحاء العـالم الاسلامى على عصر الطرطوشى ، أى فى النصف الثانى من القرن الخامس والنصف الأول من القرن السادس الهجريين (١١-١٢م) .

فهو يعيب على أهل الاسكندرية طريقتهم فى قراءة القرآن بالادارة ، فيقول :

« وأما أن يجتمع القوم فيقرأون فى السورة مثل ما يعمل أهل الاسكندرية ، وهو الذى يسمى القراءة بالادارة ، فكرهه مالك ، وقال : هذا لم يكن من عمل الناس » (١) .

وهو يستنكر اجتماع النساء بالرجال فى المساجد لحضور ختم القرآن ، أو للاستماع الى وعظ الواعظين ، ويشير الى ما كان يحدث فى أيامه من منكر نتيجة لهذا الاختلاط ، فيقول :

« ومن البدع اجتماع الناس بأرض الأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان ، وكذلك على اقامة ينير (يقصد شهر يناير) بابتياع الفواكه كالعجم ، واقامة العنصرة وخميس ابريل ، بشراء المجبنات والاسفنج ، وهى من الأطعمة المبتدعة .

وخروج الرجال جميعا أو أشتاتا مع النسـاء مختلطين للتفرج ، وكذلك يفعلون فى أيام العيـد ، ويخرجون للمصـلى ، ويقمن فيه الخيم للتفـرج لا للصلاة » (٢) .

وجماع القول ان كتاب الحوادث والبدع كتاب قيم يفيـد

---

(١) الحوادث والبدع ، ص ٧٨ ؛ وانظر كذلك ص ١٤٩ و ١٥٠ .

(٢) نفس المرجع ، ص ١٤٠ - ١٤١ .

المشتغلين بالدراسات الفقهية كما يفيد المؤرخين ورجال الآثار وعلماء الاجتماع ، فان ما فيه من استطرادات وشواهد تقدم للباحث والقارئ صورا شائقة حية لكثير من أحوال المجتمع الاسلامى فى عصر المؤلف .

وبعد نحو قرن ونصف قرن ألف المؤرخ الدمشقى أبو شامة كتابه فى البدع ، وأسماه « الباعث على انكار البدع والحوادث » ، وواضح من العنوان أنه مقتبس من عنوان كتاب الطرطوشى ، فالأول فى « الحوادث والبدع » ، والثانى فى « البدع والحوادث » .

وكان الباعث لأبى شامة على تأليف كتابه موضوعا من الموضوعات التى عالجها الطرطوشى فى كتابه وأفاض الحديث عنها ، وهو : « صلاة الرغائب » فى منتصف شهر شعبان وشهر رجب ، قال أبو شامة فى مقدمة كتابه :

« قلت : ثم كان من العجائب والغرائب أن وقع فى زماننا نزاع فى بدعة صلاة الرغائب ، واحتيج بذلك الى التصنيف المشتمل على ذم المخالف والتعنيف ، فحملتنى الأنفة للعلم ، والحمية للصدق ، على تمييز الباطل من الحق ، فألفت هذا الجزء الموصوف « بالانصاف فيما وقع فى صلاة الرغائب من الاختلاف » ، وأضفت الى ذلك بيان البدع فى غيره مما يناسبه ، وضممت اليه ما يقاربه ، رغبة فى تعليل المحن من مخالفة السنن ، وقمعا للطائفة المبتدعة .. الخ » (١) .

ونص أبو شامة على أنه اتخذ من كتاب الطرطوشى أصلا لبحثه ، واعتمد عليه اعتمادا كبيرا ونقل عنه كثيرا ، ونص كذلك على أنه قرأه ورواه عن شيخه أبى الحسن على بن محمد الهمدانى

---

(١) أبو شامة : الباعث على انكار البدع والحوادث ، ص ٦ .

عن تلميذ الطرطوشي وخليفته العالم السكندري أبي الطاهر اسماعيل ابن مكي بن عوف ، قال :

« وقد صنف الامام الشيخ الزاهد أبو بكر محمد ابن الوليد الفهري الطرطوشي — رحمه الله — كتابا ذكر فيه جملا من بدع الأمور ومحدثاتها التي ليس لها أصل في كتاب ولا سنة ولا اجماع ولا غيره ، وهو كتاب حسن مشحون بالفوائد على صغره ، أخبرنا به شيخنا العلامة أبو الحسن علي بن محمد الهمداني قراءة مني عليه ، قال : أنبأنا به الامام أبو الطاهر اسماعيل بن مكي ابن عوف مفتي الاسكندرية عنه ، وسننقل منه الى هذا الكتاب جملة من فوائده في مواضعها .. » (١) .

٨ و ٩ — والكتابان الثامن والتاسع هما :

— كتاب بر الوالدين .

— وكتاب — أو رسالة — في تحريم الغناء واللهو على الصوفية في رقصهم وسماعهم .

وتجمع بين هذين الكتابين والكتاب السابق « الحوادث والبدع » مخطوطة مدريد رقم ٥٣٤١ (٢) ، فرسالة تحريم الغناء واللهو على الصوفية تشتمل على الصفحات من ١٠٤ الى ١٢١ ، وكتاب

---

(١) أبو شامة : الباعث ، ص ١٢ .

(٢) انظر المقال الذي تضمن دراسة هذه المخطوطة في :

El Boletin de la Real Academia de la Historia. T. LXII. cuad IV. Abril 1913 P. 238.

وانظر كذلك مقدمة الترجمة الأسبانية لكتاب سراج الملوك للطرطوشي :

Alarcon (m) : Lampara de los principes par Abubequer de Tortosa (trad. Espan.), Madrid, 1930 - 1931 .

بر الوالدين يشتمل على الصفحات من ١٢١ ب الى آخر الكتاب ، ولا توجد من الكتابين غير هذه النسخة ، وتنتهى بهذا التأريخ :

« انتهى النسخ فى أوائل محرم سنة ١٠١١ ، كتبها عبيد الله محمد بن محمد بن أبى القاسم بن عمر » .

ولم يتيسر لنا حتى الآن الاطلاع على هذه المخطوطة ودراسة هذين الكتابين ، ولكن الذى تذكره المراجع أن الكتاب الأول « بر الوالدين » قد عالج فيه الطرطوشى موضوع عقوق الأبناء ، وأورد فيه من الآيات والأحاديث والحكم والأشعار ما يحث الأبناء على البر بالوالدين ، وأغلب الظن أن التجربة التى مر بها الطرطوشى مع ابن زوجته الذى كان يزمع قتله ــ والتى أشرنا اليها فيما سبق هنا ــ كانت سببا من الأسباب التى دفعته الى تأليف هذا الكتاب .

وأغلب الظن كذلك أن الطرطوشى قد أحس ــ بعد أن تزوج فى الاسكندرية ، وبعد أن أنجب ــ عاطفة الأبوة تطغى عليه وتملك عليه نفسه ، فألف هذا الكتاب ، وخاصة أن الرجل تزوج بعد أن تقدمت به السن ، أى بعد سن الأربعين ــ وهى السن التى بلغها عند وصوله الاسكندرية ، والرجل اذا أنجب فى سن متأخرة تكون عاطفة الأبوة عنده عادة قوية عارمة ، ومما يرجح استنتاجنا أن ياقوت أورد فى ترجمته للطرطوشى بعض الشعر الذى قاله فى هذا المعنى ، قال :

لو كان يدرى الابن أية غصة
يتجرع الأبوان عند فراقه ؟ !
أم تهيج بوجده حيرانة ،
وأب يسح الدمع من آماقه .
يتجرعان لبينه غصص الردى ،
ويبوح ما كتماه من أشواقه .

لرثى لأم ســـــــل من أحشائها ،
وبكى لشـــــيخ هـــــام فى آفاقه

ولبدل الخلق الأبى بعطفـــــــــه ،
وجزاهما بالعذب من أخـــــــلاقه

وأغلب الظن ــ مرة ثالثة ــ أن هذا الشعر لم يكن الا تعبيرا عن عاطفته وشعوره هو ، فالشيخ الذى عناه بقوله : « وبكى لشيخ هام فى آفاقه » لم يكن الا الطرطوشى نفسه .

١٠ ــ والكتاب العاشر هو **« رسالة فى تحريم جبن الروم »** :

وهذا الكتاب ألفه قطعا أثناء مقامه فى الاسكندرية ، وكان من الأسباب التى أثارت عليه القاضى ابن حديد والوزير الأفضـــل شاهنشاه ــ كما بينا سالفا ــ ، وهو من كتبه المفقودة .

١١ ــ والكتاب الحادى عشر هو **« كتاب الفتن »** ، ولعله تناول فيه الفتن التى سادت العالم الاسلامى فى ذلك الوقت ، شرقه وغربه ــ فقد كان العالم الاسلامى يجتاز حينذاك مرحلة تسودها الانقسامات والفتن فى كل جزء من أجزائه ، وهو من كتبه المفقودة كذلك .

١٢ ــ والكتاب الثانى عشر هو **« كتاب تحريم الاستمناء »** .
وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة برلين تحت رقم ٤٩٨١ .

١٣ ــ والكتاب الثالث عشر هو **« كتاب نزهة الاخوان المتحابين فى الله »** :

وتوجد منه نسخة خطية فى مكتبة جوتا تحت رقم ٩٠٩ .

١٤ و ١٥ ــ وهذان الكتابان هما :

« رسالة العدة عند الكرب والشدة » .
و **« حاشية على اثبات الواجب »** .

وقد ذكرا فى (فهرس مكتبة استانبول ، الجـــزء الأول) منسوبين الى الطرطوشى .

١٦ ــ « **كتاب الدعاء** » .

١٧ ــ « **كتاب النهاية فى فروع المالكية** » .

١٨ ــ « **كتاب نفائس الفنون** » .

وهذه الكتب الثلاثة انفرد بذكرها حاجى خليفة فى « كشف الظنون » منسوبة الى الطرطوشى .

١٩ ــ « **اختصار كتاب أخلاق رسول الله** » ، والأصل لأبى محمد عبد الله بن جعفر بن حيان .

ذكره ابن خير فى فهرسه ، قال :

« كتاب أخلاق رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ لابن حيان ، اختصار الشيخ الامام أبى بكر محمد بن الوليد الفهرى الطرطوشى ــ رحمه الله .

حدثنى به القاضى أبو بكر العربى ــ رحمه الله ــ قال :

أخبرنى به شيخنا الامام أبو بكر الطرطوشى ــ رحمه الله ــ به وبالأصل عن أبى بكر المفيد الحافظ المعروف بابن الخاصبة ، ولم يزد ابن العربى ــ رحمه الله ــ على هذا فى سند الأصل .

وحدثنى بالأصل المذكور الشـــيخ أبو الحسين عبد الملك بن محمد الصدفى ، قال : قرأت جميعه على الشيخ الامام أبى القاسم عبد الله بن طاهر التميمى ، حدثنا به عن أبى بكر أحمد بن الحارث المقرىء ، عن أبى محمد عبد الله بن جعفر بن حيان ــ رحمه الله ــ ستة أجزاء » .

٢٠ ـ « جزء فيه منتخب من عيون خصائص العباد » .

ذكره ابن خير فى فهرسه .

٢١ ـ « ثلاثة أجزاء فيها الكلام فى الغنى والفقر » .

ذكره ابن خير فى فهرسه ، قال :

« ثلاثة أجزاء فيها الكلام فى الغنى والفقر ، تولى جمعها الفقيه أبو بكر الطرطوشي ـ رحمه الله ـ حدثنى بها القاضي أبو بكر بن العربى ـ رحمه الله ـ » .

٢٢ ـ « رسالة أبى بكر الطرطوشى الى ابن تاشفين » .

ذكرها ابن خير فى فهرسه ، قال :

« رسالة الفقيه أبى بكر محمد الطرطوشي ـ رحمه الله ـ الى ابن تاشفين ، حدثنى بها القاضي أبو بكر محمد بن العربى ـ رحمه الله ـ قراءة عليه وأنا أسمع غير مرة ، قال : أخبرنى بها أبو بكر الطرطوشي ـ رحمه الله ـ » .

وهى رسالة طويلة فى نحو عشر صفحات كتبها الطرطوشي الى أبى يعقوب بن تاشفين يوصيه بتقوى الله وطاعته ، واشاعة العدل بين رعاياه ، وحشد فيها الشواهد الكثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية والأحداث التاريخية التي تتضمن الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

والرسالة ـ لحسن الحظ ـ موجودة كلها فى الجزء الذى لم ينشر من مخطوطة « مفاخر البربر » (١) ، وهى لمؤلف مجهول ، وقد أوصى الطرطوشي فى ختام رسالته السلطان المرابطى

---

(١) أشكر الصديق الدكتور أحمد مختار العبادى ، فقد تفضل وأطلعنى على صور شمسية من هذه المخطوطة ، وعنها نقلت نص هذه الرسالة التى سأنشرها ملحقة بكتابى هذا .

أبا يعقوب يوسف بن تاشفين بصديقه وتلميذه أبى بكر محمد ابن العربى خيرا ، قال :

« والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو من جمع العلم ووعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها ، وكتب من حديث رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ وروى صحيحه وثابته ؛ والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو (أى ابن العربى) وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفى أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله ــ سبحانه ــ وهو أجل القائلين :

« واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة » .

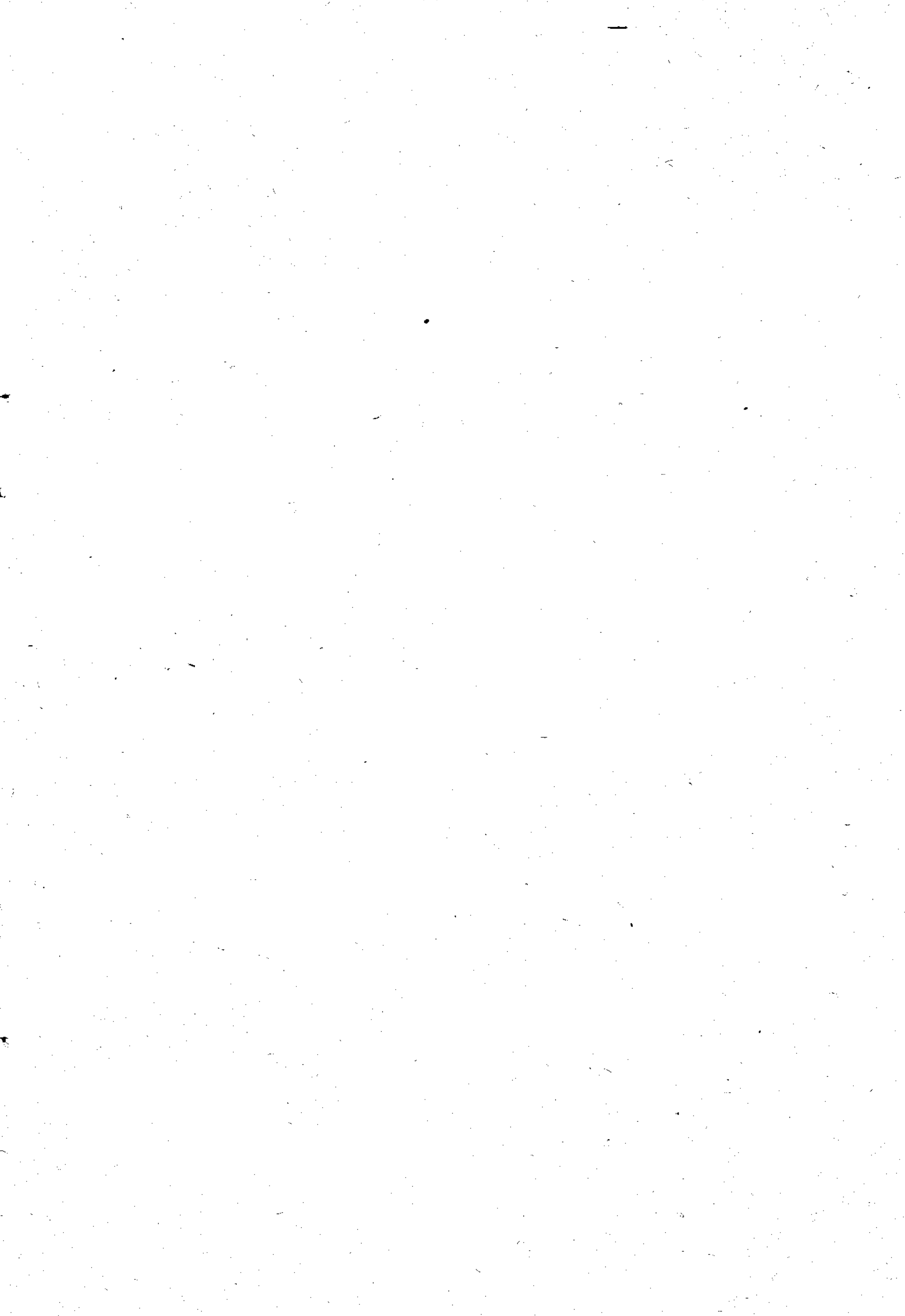
والحمد لله رب العالمين ، والسلام عليك ورحمة الله وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم » (١) .

والشبه كبير بين النصائح التى أزجاها الطرطوشى للوزير الفاطمى الأفضل شاهنشاه والتى ضمنها كتابه « سراج الملوك » ، والنصائح التى أزجاها للسلطان المرابطى أبى يعقوب يوسف

---

(١) وقد عقب مؤلف (مفاخر البربر) على هذه الرسالة بقوله : « هكذا كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم » .

ابن تاشفين فى رسالته اليه ، والطرطوشى فى نصائحه هذه وتلك هو هو لم يتغير ، يمثل عالم الدين الجرىء الذى يرى من واجبه أن يتقدم لولى الأمر ــ مهما علت مكانته أو قوى سلطانه ــ بالنصح أن يلتزم حدود الدين فى أوامره ونواهيه ، وأن يرعى الله فى رعيته ، وأن يفتح بابه لكل صاحب مظلمة ، وهذا طراز من العلماء نادر الوجود .



ملحق

نص رسالة أبى بكر الطرطوشى

الى السلطان المرابطى أبى يعقوب يوسف بن تاشفين

(والرسالة تنشر لأول مرة عن الجزء المخطوط الذى لم يطبع بعد من كتاب مفاخر البربر) .

وكتب (الطرطوشي) لي كتابا نسخته من أوله الى آخره : —

بسم الله الرحمن الرحيم

من محمد بن الوليد الطرطوشي الى الأمير أبي يعقوب ابن تاشفين ، سلام عليك ، أما بعد ، فاني أحمد الله اليك الذى لا اله الا هو ، وأشكره لديك كثيرا كما هو أهله ، وأخصك من مواعظه وحكمه ما ان أخذت به نجوت من عظيم ما ركبت ان شاء الله تعالى ، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم ، وحسبنا الله ونعم الوكيل :

قال الله سبحانه : « يا داود انا جعلناك خليفة فى الأرض فاحكم بين الناس بالحق » الى قوله « يوم الحساب » .

قال سلمان الفارسي — رضى الله عنه :

« أتعلمون من الخليفة ؟ الخليفة هو الذى يقضى بكتاب الله ، ويشفق على الرعية شفقة الرجل على أهله » .

وقال سبحانه وتعالى : « الذين ان مكناهم فى الأرض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر » .

فمن مكنه الله فى الأرض ، وأتاه الله سلطانا ولم يفعل ما أمر الله تعالى به فى هذه الآية ، خفنا أن لا يكون من أهلها ، لأن الله تعالى وصف هذه الأمة — اذا فتح الله تعالى عليهم الأرض ، وأهلك عدوهم — باقامة الصلاة وايتاء الزكاة وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما من أحد يلى عملا أو نال سلطانا الا اهتز به الصراط حين يركبه حتى يزول كل عظيم عن حقه ، فان كان محسنا نجا ، وان كان مسيئا هوى سبعين خريفا » .

فلما بلغ ذلك عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : « ومن يرغب فى العمل بعد هذا ؟ » قال له أبو ذر ــ رضى الله عنه ــ : « من سلب الله أنفه ، وأصعر خده » .

وروى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ما من وال يلى رعية من المسلمين فيموت وهو غاش لهم الا حرم الله تعالى عليه الجنة » .

وروى ان رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال للعباس عمه لما قال له : « أمرنى على امارة » ، فقال له رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « يا عباس يا عم رسول الله ، نفس تحييها (١٣٤) خير من امارة لا تحصيها ، ان الامارة حسرة وندامة يوم القيامة ، فان استطعت أن لا تكون أميرا فافعل » .

وروى أن رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ قال : « ألا كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، والرجل راع على أهل بيته ومسئول عن رعيته ، والمرأة راعية على أهل بيت زوجها وولدها وهى مسئولة عنهم ، وعبد الرجل راع على مال سيده وهو مسئول عنه ، ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته » .

ولقد بلغ هذا من نفوس الصحابة والخلفاء الراشدين والأئمة المهتدين مبلغا ذهلت له عقولهم ، وطاشت حلومهم ، فروى أن عمر ابن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ مر بطريق مكة ، فأبصر راعيا يرعى بمكان جدب ، فناداه : أيا راع ، قد رأيت مكانا هو أخصب من مكانك فالحق به ، ثم قال : « كل راع مسئول عن رعيته » .

وقال على : « رأيت عمر بن الخطاب يعدو على قتب ، فقلت « الى أين ؟ » فقال : « بعير من ابل الصدقة قد ند وأنا أطلبه » فقلت :

« أذللت الخلفاء بعـــدك يا أمير المؤمنين » فقـــال : « لا تلمنى يا أبا الحسن ، فوالذي بعث محمدا بالنبوة لو أن نحلة ذهبت بشاطىء الفرات لأجدن بها حسرة يوم القيامة الا انه لا حرمة لوال ضيع المسلمين » .

يا أبا يعقوب ، لقد بليت بأمر لو حملته السماوات لانفطرت ، ولو حملته النجوم لانكدرت ، ولو حملته الأرض والجبال لتزلزلت وتدكدكت ، انك حملت الأمانة التى عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها ؛ فروى أن آدم صلوات الله عليه ، لما استخلفه الله تعالى فى الأرض على ذريته ، وما فيها من الأنعام ، وعهد اليه عهودا أمره فيها ونهاه ، فقام فيها بأمر الله سبحانه الى أن حضرته الوفاة ، فسأل الله ـ سبحانه ـ أن يعلمه من يستخلفه ويقلده من الأمانة ما قلده (١) ، فأمر أن يعرض ذلك على السماوات بالشرط الذى أخذ عليه من الثواب ان أطاع ، ومن العقاب ان عصى ، فأبين أن يقبلنه شفقا من عقابه ، ثم أمره أن يعرضه على الجبال والأرض فأبينها أيضا ، ثم أمره أن يعرضه على ولده فقبله ولده ، على شرط أن له الثواب ان أطاع والعقاب ان عصى ، فوبخه الله تعالى على مسارعته الى اقبول ذلك ، فقال : وحملها الانسان انه كان ظلوما لنفسه ، جهولا بعقابه وما تقلد لربه ، وكان الغرض تخييرا لا ايجابا .

وروى أن عمر بن عبد العزيز لما أفضت اليه الخلافة ، سمعوا فى منزله بكاء عاليا فسئل عن البكاء ، فقيل : ان عمر خير جواريه ، وقال : « قد نزل بى أمر شغلنى عنكن ، فمن أحبت أن أعتقها ، أعتقها ، ومن أحبت أن أمسكها لم يكن لها نصيب منى » قال : فبكين يأسا منه ؛ ثم دعا أفاضل المسلمين فى زمانه وعلمائهم فى وقته : سالم بن عبد الله ، ومحمد بن كعب ، ورجاء بن حيوة ، فقال

---

(١) الأصل : خلده .

لهم : « انى قد ابتليت بهذا الأمر ، فأشيروا على بها » . فعد الخلافة بلاء ، وأنت ونظراؤك تعدون هذا البلاء نعمة .

فقال له سالم بن عبد الله : « يا أمير المؤمنين ، ان أردت النجاة من عذابها (١٣٥) فصم عن الدنيا ، وليكن افطارك فيها الموت » .

وقال محمد بن كعب : « ان أردت النجاة من عذاب الله ، فليكن كبير المسلمين لك أبا ، وأوسطهم عندك أخا وأصغرهم ولدك ، فوقر أباك وارحم أخاك ، وتحنن على ولدك » .

وقال له رجاء بن حيوة : « ان أردت النجاة من عذاب الله غدا ، فأحب للمسلمين ما تحب لنفسك ، واكره لهم ما تكره لنفسك ، ثم مت متى شئت » .

وانى لأخاف عليك أشد الخوف ، فاتق الله يا أبا يعقوب فى أمة محمد — صلى الله عليه وسلم — ، فان لك مع الله تعالى موقفا يسائلك فيه عنهم شخصا شخصا ، ذكرا وأنثى ، صغيرا وكبيرا ، حرا وعبدا ، ومسلما وذميا ، فأعد لذلك المقام كلاما ، ولذلك السؤال جوابا ، فالذى نفسى بيده ان ذلك لحق مثل ما أنكم تنطقون .

روى عبد الله بن عمر أن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — قال : « ما منكم أحد الا ويخلو بربه ، ليس بينه وبينه ترجمان ، ولا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن خمسة : عن عمره فيما أفناه ؟ وعن شبابه فيما أبلاه ؟ وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ؟ وماذا عمل فيما علم » .

واعلم يا أبا يعقوب : فانه لا يزنى فرج فى ولايتك ومدى سلطانك وطول عمرك ، ألا كنت المسئول عنه والمرتهن بجريرته ، وكذلك لا يشرب فيها نقطة مسكر الا وأنت المسئول عنها ، ولا ينتهك فيها عرض امرىء مسلم ، الا وأنت المطالب به ، ولا يتعامل فيها بالربا الا وأنت المأخوذ به ، وكذلك سائر المظالم ؛ وكل حرمة انتهكت من حرمات الله تعالى ، فعهدتها عليك ، لأنك قادر علـى تغييرها ، فأما ما خفى من ذلك ولم يكن ظاهرا يراه المسلمون فأنت المبرأ منه ان شاء الله تعالى .

ألا ترى الى عمر بن الخطاب كيف أشفق أن يطالبه الله ببعير من ابل الصدقة ، وانما هو البعير للمسلمين ، فركب على بعيره وجعل يطلب بنفسه ، ولا عذر لك عند الله تعالى أن تقول لم يبلغنى ، فانك اذا احتجبت عن المسلمين فكيف تعلمه وتراه ؟

قال الله تعالى : « كانوا لا يتناهــون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون » ، من تركهم الانكار وانما قاله لقوم سخط عليهم ، هذا بين الأكفاء والنظراء ، فما ظنك بين الولاة والأمراء .

قال الله سبحانه : « يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة الا أحصاها ، ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا » .

جاء فى التفسير ، الصغيرة : التبسم ، والكبيرة : الضحك .

ولقد بلغنى أن عبد الله العمرى لما حج لقى هارون الرشيد فى الطواف ، فقال : « يا هارون » ، فنظر اليه الرشيد فعرفه ، فقال : « لبيك يا عماه » ، فقال : « كم ترى ها هنا من خلق ؟ » قال : « لا يحصيهم الا الله تعالى » . قال : « فاعلم أيها الرجل أن كل واحد منهم يسأل عن خاصة نفسه ، وانت وحدك تسأل عنهم كلهم ، فانظر كيف تكون ؟ » .

فبكى هارون الرشيد بكاء شديدا ، فجعلوا يعطونه منــــديلا يمسح به دموعه ، قال له : « والله يا هارون ان الرجل ليسرع (١) فى مال نفسه فيستحق الحجر عليه ، فكيف بمن يسرع (١) فى مال المسلمين ؟ » .

ولما دخل طاوس اليمانى على سليمان بن عبد الملك قال :

« يا أمير المؤمنين ، هل تدرى من أشـــد الناس عذابا يوم القيامة ؟ » .

قال سليمان : « قل » .

---

(١) كذا فى الأصل ، ولعلها « ليسرف » .

فقال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة من أشركه الله فى ملكه ، فجار فى حكمه » .

فاستلقى سليمان بن عبد الملك على سريره (١٣٦) باكيا ، فما زال باكيا حتى قام عنه جلساؤه .

وقال أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه :

« ان الملك اذا ملك زهده الله فى ماله ، ورغبه فى مال غيره ، وأشرف فعله الاشفاق من الفقر ، فهو يسخط على القليل ويحسد على الكثير ، حتى اذا قضى الله نحبه ، حاسبه بأشد حسابه ، وأقل عفوه » .

فاحذر يا أبا يعقوب أن ترد على جنة عرضـــها السموات والأرض ، فلا يكون لك فيها موقف قدم ، أعاذنا الله واياك من هذا الموقف .

ولقد بلغنى يا أبا يعقوب انك احتجبت عن المسلمين بالحجارة والطين ، واتخذت دونهم حجابا ، وأن طالب الحاجة ليظل يومه ببابك فما يلقاك ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق » ، قال الحسن : « لا والله ، ما كان رســـول الله صلى الله عليه وسلم تغلق دونه الحجب ، ولا يغدى عليه بالجفان ، ولا يراح عليه بها ، ولكنه كان بارزا ، من أراد أن يلقى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقيه ، وكان يجلس بالأرض ، ويوضع طعامه فى الأرض ، ويلبس الغليظ ، ويركب الحمار ، ويردف عليه عبده ، ويلعق أصابعه ، وكان يقول : « من رغب عن سنتى فليس منى » ، قال الحسن : « فما أكثر الراغبين عن سنته التاركين لها » .

وكان عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ يأخذ درته ، ويمشى فى الأسواق ، ويتفقد أمر رعيته ، وكان يمشى ليلا فى سكك المدينة مع عبد الرحمن بن عوف وغيره من الصحابة ــ رضى الله عنهم ــ ، يحفظون عورات المسلمين . فروى عنه أنه استعمل سعد بن أبى

وقاص على الكوفة ، فبلغه أن سعدا اتخذ قصرا وجعل عليه بابا ، وقال انقطع التصويت ، فأرسل اليه محمد بن مسلمة ، وقال : « ايت سعدا فأحرق عليه بابه » . فأتى الكوفة وأخرج زنده ، واستورى ناره ، ثم أحرق الباب ، فجعل سعد يعتذر ويحلف بالله ما قال ، فقال له محمد بن مسلمة : « تفعل ما أمرتك به وتورى عنك القول » .

يا أبا يعقوب : ولقد بلغنى أنك استأثرت على المسلمين بالحظ الوافر من حطام الدنيا وزخرفها ، فلبست الناعم ، وأكلت اللين ، وتمتعت بلذاتها وشهواتها ، كأنك لم تسمع قول الله عز وجل : « أذهبتم طيباتكم فى حياتكم الدنيا واستمتعتم بها » ، أولم تسمعه سبحانه يقول لنبيه — صلى الله عليه وسلم — : « ولا تمدن عينيك الى ما متعنا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه » .

ولقد روت عائشة — رضى الله عنها — قالت : « لقد كان يمر علينا الشهران والثلاثة ما توقد فى بيوت رسول الله — صلى الله عليه وسلم — نار » . قيل : « فما كان عيشكم ؟ » قالت : « الأسودان : التمر والماء » .

ولقد روى أن فاطمة — رضى الله عنها — قالت : « خبزت رغيفا من شعير ، فجئت منه بكسرة الى رسول الله — صلى الله عليه وسلم — ، فقال : « ما هذا يا فاطمة ؟ » فقلت : « رغيف خبزته يا رسول الله ، ولم تطلب نفسى أن آكله حتى أجيئك بهذه الكسرة » . فقال : « أما انه أول طعام دخل جوف أبيك منذ ثلاثة أيام » .

هذا لو شركوك فى خفض العيش لنهيت عنه ، لأن الله تعالى أخذ على الأئمة مثل ما روى عن يوسف — صلى الله عليه وسلم — (١٣٧) أنه كان يأكل الشعير ويطعم عياله الخشكار ، ويطعم المسلمين الحوارى ، وكان يجوع نفسه ، فقيل له : « أتجوع وبيدك خزائن الأرض ؟ » فقال : « أخاف أن أشبع فأنسى الجائعين » .

وروى أن عمر بن الخطاب ـ رضى الله عنه ـ ، لما أفضت اليه الخلافة قال : « انى أنزلت نفسى فى مال الله سبحانه بمنزلة ولى اليتيم ، ان استغنيت استعففت ، وان افتقرت أكلت بالمعروف » .

وروى عنه أنه قال « أخبركم بما يحل لى من مال الله سبحانه ، استحل منه حلتى : حلة الشتاء وحلة القيظ ، وما أحج عليه وأعتمر ، وقوتى وقوت عيالى كقوت رجل من قريش لا من أغنيائهم ولا من فقرائهم ، ثم أنا بعد رجل من المسلمين يصيبنى ما أصابهم » . فكيف والفقراء ببابك يتضاغون ، وذوو الحاجات يترددون وأهل الديون والغرم فى السجون محبوسون مأسورون ، وأموال المسلمين تحت يدك وفى قبضتك ؟ أما سمعت أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « من ترك مالا فلورثته ، ومن ترك كلا فعلينا » ، أما سمعت قول الله تعالى : « انما الصدقات للفقراء والمساكين » .. الآية الى قوله « الغارمين » .

يا أبا يعقوب ، انه قد كبرت السن ، وانحلت القوى ، واشتعل الرأس شيبا ، وارتحلت الدنيا مدبرة ، وجاءت الآخرة مقبلة ، وحان الفراق ، والتفت الساق بالساق ، وجاءت سكرة الموت بالحق ، فالبدار البدار الى حياة لا موت فيها وشباب لا هرم معه ، وصحة لا سقم فيها . قال الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء عند ربهم يرزقون » .. الى قوله : « من فضله » .

يروى عن ابن عباس أن النبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « لما أصيب اخوانكم يوم أحد ، جعل الله أرواحهم فى أجواف طير خضر ترد أنهار الجنة ، وتأكل من ثمارها ، وتسرح من الجنة حيث شاءت ، وتأوى الى قناديل من ذهب تحت العرش فلما رأوا طيب مقيلهم ومطعمهم ومشربهم ، ورأوا ما أعد الله لهم من الكرامة ، قالوا : « يا ليت قومنا يعلمون بما نحن فيه من النعم ، وما صنع

الله بنا ، كى يرغبوا فى الجهاد ولا ينكلوا عنه » . فقال الله تعالى : أنا مخبر عنكم ومبلغ اخوانكم ، ففرحوا بذلك واستبشروا ، فأنزل الله تعالى : « ولا تحسبن الذين قتـــلوا فى سبيل الله أمواتا ، بل أحياء » .. الآية . وقال ـ جل من قائل ـ « ان الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة » الى قوله : « الفوز العظيم » . فما ظنك بتجارة ، الله مشتريها يوشـــك والله أن لا تبور .

وقال جل من قائل : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم ؟ » فلو قطع هنا ، لانقطعت الأعيان فى البحث عن هذه التجارة ، لأن الله بفضله وكرمه بين مراده من ذلك فقال : « تؤمنون بالله ورسوله » الى قوله « ان كنتم تعلمون » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « مثل المجاهد فى سبيل الله كمثل الصائم القائم لا يفتر من صلاة ولا صيام حتى يرجع » .

وروى أن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ قال : « تكفل الله لمن جاهد فى سبيل الله ، لا يخرجه من بيته الا الجهاد فى سبيل الله وتصديق (١٣٨) كلمته ، أن يدخله الله الجنة أو يرده الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة » .

وقال رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ : « لولا أن أشق على أمتى لأحببت أن أتخلف عن سرية تخرج فى سبيل الله ، ولكنى لا أجد ما أحملهم عليه ، ويشق عليهم أن يتخلفوا بعدى ، والذى نفسى بيده لوددت أن أقاتل فى سبيل الله فأقتل ، ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل ، والذى نفسى بيده ، لا يكلم أحد فى سبيل الله ، والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ، الا جاء يوم القيامة وجرحه يشعب دما ، اللون لون الدم ، والريح ريح المسك » .

وقال أنس بن مالك : « أستشهد عمى يوم أحد ، وكان قد غاب عن بدر ، فقال : « يا رسول الله ، ان الله أشهدنى قتال المشركين ليرينى ما أصنع » ، فلما كان يوم أحد ، قال : انى لأجد ريح الجنة

من دون أحد ، قال فما استطعت يا رسول الله ما أصنع ، فوجدنا بضعا وثمانين ضربة بالسيف ، أو طعنة بالرمح ، أو رمية بالسيف ، ومثل به المشركون ، فنزل فيه وفى أمثاله من المؤمنين : « رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه ، فمنهم من قضى نحبه ، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا » .

واعلم يا أبا يعقوب ان الله تعالى فرض الجهـــاد على كافة المسلمين ، ولا يرده جور جائر ، ولا فسق فاسق الى أن تقوم الساعة .

قال الله تعالى : « قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليـــوم الآخر » ، الى قوله « صاغرون » . فلم يرخص لهذه الأمة فى ترك جهاد عدوهم الا باعطاء الجزية أو كلمة الاسلام . وهذه الآية نسخت كل آية فى كتاب الله تعالى تتضمن الاعراض عن المشركين .

وروى أبو بكر الصديق ــ رضى الله عنه ــ ، قال رسول الله ــ صلى الله عليه وسلم ــ : « ما ترك قوم الجهاد الا عمهم العذاب » ، فجهاد الكفار فرض عليك فيما يليك من ثغور بلاد الأندلس ، لأنك أقرب الملوك اليها ، وعندك الكراع والسلاح ولأمة الحرب وآلتها ، وجيوش المسلمين وحمـــاة البيضة طائعون لك ، وكذلك كل من بنواحيك وجنبـات أعمالك من المجاهدين والمقاتلين أولى البطش والقوة ، وأنت فى حرج من تضييع من فى ثغور أرض الأندلس من جماعة المسلمين والحرم والدرارى ، أفلا تأسيت بمن سافر اليها ، واقصى المضى من أرض الحجاز من حماة المسلمين ومجاهديهم حتى استفتحوها ، وبثوا فيها كلمة الاسلام وشهادة التوحيد ؟ فكيف بمن يناسخها ويجاورها ؟ .

يا أبا يعقوب : اذا أردت الظفر بالعدو فعليك بالعدل فى الرعية ، فقد روى عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ أن وفدا من الوفود قدم عليه بالفتوح ، فقال له عمر : « متى لقيتم عدوكم ؟ » فقال : « من أول النهار » ، قال : « فمتى انهزموا ؟ » فقال : « من آخر

النهار » . فقال عمر : « انا لله وانا اليه راجعون ، وقام الشرك للايمان من أول النهار حتى اعتدل النهار ، والله ان كان هذا الا عن ذنب أحدثتموه بعدى أو أحدثته بعدكم ، ولقد استعملت بعلى ابن أمية على اليمن ، أستنصرلكم بصلاحه » .

وكتب أبو بكر الصديق ـ رضى الله عنه ـ الى جنده بالشام ولما يؤتى العشرة الآلاف (١٣٩) وأكثر اذا أتوا من تلقاء الذنوب فاحترسوا من الذنوب .

ومما أتحفك به ، وهو خير لك من طلاع الأرض ذهبا لو أنفقته فى سبيل الله ، حديث رواه الأئمة الثقات عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ فروى مسلم فى كتابه الصحيح ، نقل العدل عن العدل عن رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ أنه قال : « لا تزال طائفة من أهل المغرب ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله » . والله أعلم هل أرادكم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ معشر المرابطين ، أو أراد بذلك جملة أهل المغرب وما هم عليه من التمسك بالسنة والجماعة ، وطهارتهم من البدع والأحداث فى الدين ، والاقتفاء لآثار من السلف الصالح رضى الله عنهم . وانا لنرجو أن تكونوا أولى بقية ينهون عن الفساد فى الأرض ؛ ولقد كنا فى الأرض المقدسة ـ جبر الله مصابها ـ تترى علينا أخبارك ، وما قمت فيه من أداء فريضة الله تعالى فى جهاد عدوه واعزاز دينه وكلمته ، وكان من هناك من العلماء والفقهاء وحملة الدين والعباد والزهاد . والمنقطعين الى الله تعالى يدعون الله سبحانه فى نصرك وتأييدك والفتح على يديك .

فلئن كنت تستنصر بجنود أهل الأرض ، لقد كنا نستنصر لك بجنود أهل السماء ، حتى قدم علينا الأرض المقدسة الفقيه أبو محمد عبد الله بن العربى وابنه الفقيه الحافظ أبو بكر محمد بن عبد الله ، فذكرا من سيرتك فى جهاد العدو ـ أهلكه الله تعالى ـ فى تلك الأندية والمحافل والحلق والمجالس ، وصبرك على مكافحة العدو

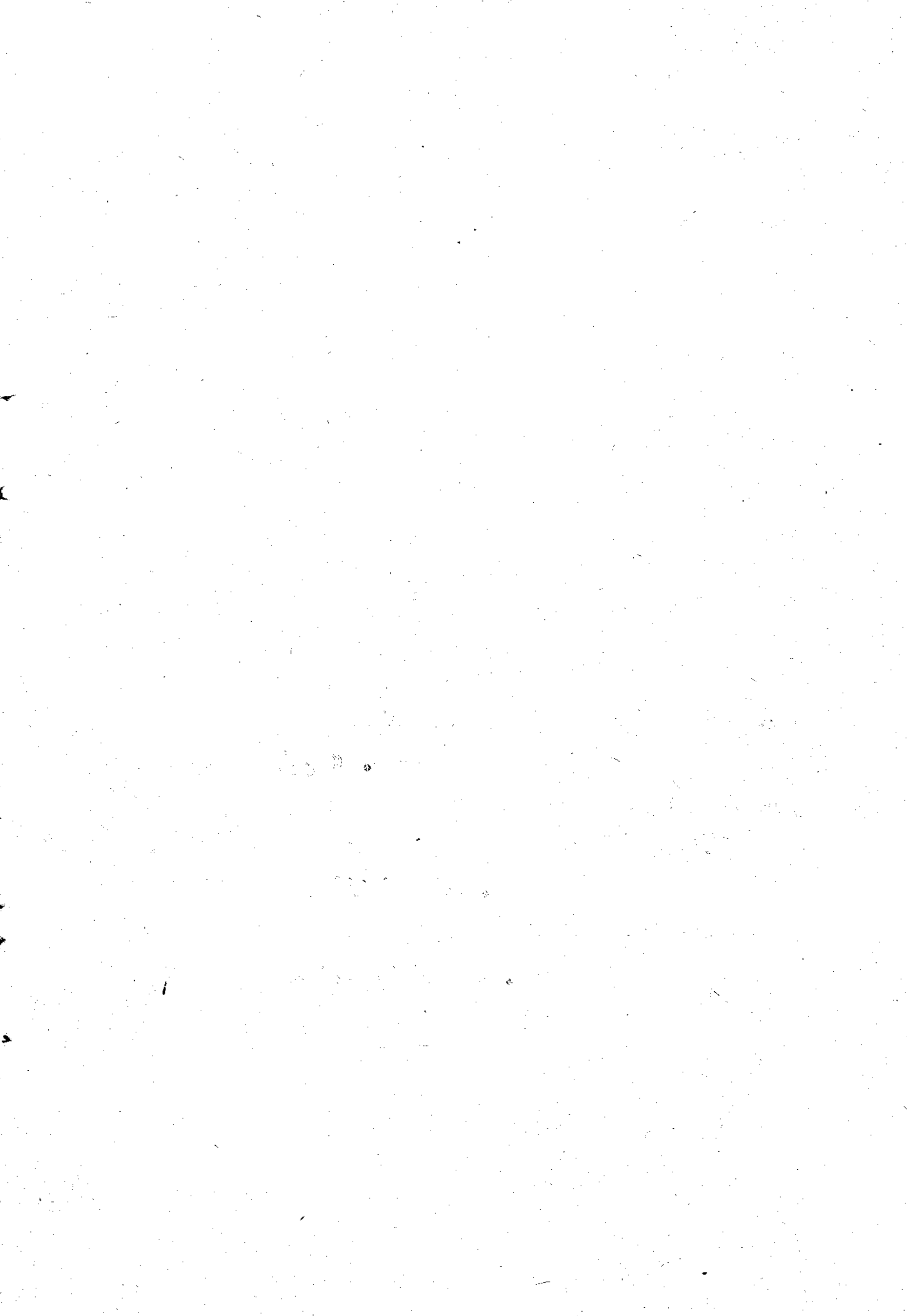
ومصابرته ، واعزازك للدين وأهله ، والعلم وحملته ، ما زاد المسلمين بصيرة فى الدعاء لك وحسن الاعتقاد فيك ، حتى تمنينا أن نجاهد الكفار معك ، ونكثر سواد المسلمين فى جملتك .

نسأل الله تعالى الذى يهب الجزيل من فضله أن يهبنا واياك الشهادة فى سبيله ثم اليه سبحانه نضرع أن يريك الحق حقا فتتبعه ، والباطل باطلا فتجتنبه ، فصلاح الرعية بصلاح الراعى .

والفقيه أبو بكر محمد بن عبد الله بن العربى ممن صحبنا أعواما يدارس العلم ويمارسه ، بلوناه وخبرناه ، وهو ممن جمع العلم ورعاه ، ثم تحقق به ورعاه ، وناظر فيه وجد حتى فاق أقرانه ونظراه ، ثم رحل الى العراق ، فناظر العلماء ، وصحب الفقهاء ، وجمع من مذاهب العلم عيونها وكتب من حديث رسول الله — صلى الله عليه وسلم — وروى صحيحه وثابته ، والله تعالى يؤتى الحكمة من يشاء ، وهو وارد عليك بما يسرك ، فاشدد عليه يديك ، واحفظ فيه وفى أمثاله وصية الله سبحانه لنبيه عليه السلام ، قال الله سبحانه وهو أجل القائلين : « واذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا فقل سلام عليكم ، كتب ربكم على نفسه الرحمة ، والحمد لله رب العالمين » .

والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته ، وصلى الله على سيدنا ومولانا محمد خاتم النبيين ، وآله الطيبين الطاهرين ، وسلم ، وشرف وكرم ، وأفضل وأنعم .

(١٤٠) هكذا كانت سيرة العلماء مع الأمراء ، ومنذ عدم الناس أمثال هؤلاء العلماء أصابهم ما أصابهم .



مراجع الكتاب

(أ) المراجع العربية

أدهم (على)
بعض مؤرخى الاسلام ، القاهرة ، ١٩٥٨ .

ابن بشكوال (أبو القاسم خلف بن عبد الملك)
كتاب الصلة ، جزءان ، القاهرة ، ١٩٥٥ .

ابن تغرى بردى (جمال الدين أبو المحاسن يوسف)
النجوم الزاهرة فى ملوك مصر والقاهرة ، ظهر منه حتى الآن ١٢ جزءا ، طبعة دار الكتب المصرية بالقاهرة ، ١٩٢٩ — ١٩٥٦ م .

التنبكتى (أحمد بابا)
نيل الابتهاج بتطريز الديباج (على هامش الديباج المذهب لابن فرحون) ، القاهرة ، ١٣٥١ هـ .

ابن الحاج (أبو عبد الله محمد بن محمد العبدرى)
كتاب المدخل الى تنمية الأعمال بتحسين النيات والتنبيه على بعض البدع والعوائد التى انتحلت وبيان شناعتها وقبحها ، ٣ أجزاء ، اسكندرية ١٩٣٤ م .

حاجى خليفة (مصطفى بن عبد الله ، المسمى كاتب چلبى)
كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون .

الحمـــيرى

صفة جـــزيرة الأندلس (عن كتاب الروض المعطار فى خبر الأقطار ، نشر ليفى بروفنسال) ، القاهرة ١٩٣٧ م .

ابن خلدون (عبد الرحمن)

المقدمة ، القاهرة ، ١٣٢٢ هـ .

ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر)

وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، ٦ أجزاء ، القاهرة ، ١٩٤٩ م .

ابن خير (أبو بكر محمد بن خير بن عمر بن خليفة الأموى الأشبيلى)

فهرسة ما رواه عن شيوخه من الدواوين المصنفة فى ضروب العلم وأنواع المعارف ، جزءان ، سرقسطة ١٨٩٤ ـ ١٨٩٥ م (وهو المجلد التاسع من المكتبة الأندلسية العربية) ، نشر : فرنسشكه قداره وخليان رباره طرغوه .

Index librorum de Diversis Scientiarum Ordinibus Zuos a magistris didicit (Abu Bequer Ben Khair : Franciscus Codera et J. Rebera Tarrago).

الزبيدى (السيد محمد مرتضى)

اتحاف السادة المتقين بشرح أسرار احيـــاء علوم الدين ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣١١ هـ .

الزركلى (خير الدين)

الأعلام ، الطبعة الثانية ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٥٤ ـ ١٩٥٩ م .

السبكى (تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن تقى الدين)

طبقات الشافعية الكبرى ، ٦ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

سركيس (يوسف اليان)

معجم المطبوعات العربية والمعربة ، القاهرة ١٣٤٦ (١٩٢٨) .

السيوطى (جلال الدين عبد الرحمن)

بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة ، القاهرة ١٩١٠ م .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، ١٣٢٧ هـ .

أبو شامة (شهاب الدين أبو محمد عبد الرحمن بن اسماعيل)

الباعث على انكار البدع والحوادث ، نشر محمد فؤاد منقارة الطرابلسى ، القاهرة ١٩٥٥ م .
الروضتين فى أخبار الدولتين ، جزءان ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .
الذيل على الروضتين ، القاهرة ١٩٤٧ م .

الشيال (جمال الدين)

أعلام الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، القاهرة ١٩٦٥ م .
تاريخ مدينة الاسكندرية فى العصر الاسلامى ، اسكندرية ١٩٦٧ م .
تاريخ مصر الاسلامية ، جزءان ، اسكندرية ١٩٦٧ م .

الشيرزى (عبد الرحمن بن نصر)

المنهج المسلوك فى سياسة الملوك .

الصفدى (صلاح الدين خليل بن أيبك)

الوافى بالوفيات ، طبع منه أربعة أجزاء باشراف جمعية المستشرقين الألمان ، ١٩٤٩ — ١٩٥٩ م .

الضبى

بغية الملتمس فى تاريخ رجال أهل الأندلس ، مجريط ١٨٨٤ م .

ابن طباطبا (محمد بن على ، المعروف بابن الطقطقى)

الفخرى فى الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، القاهرة ١٩٢٣ م .

الطرطوشى (أبو بكر محمد بن محمد)

الحوادث والبدع ، نشر محمد الطالبى ، تونس ١٩٥٩ م .
سراج الملوك ، القاهرة ١٩٣٥ م .
مختصر الكشف والبيان فى تفسير القرآن (مخطوط بدار الكتب المصرية) .

ابن عذارى (أبو العباس أحمد)

البيان المغرب فى أخبار المغرب ، تحقيق ليفى بروفنسال وكولان ، جزءان ، ليدن ١٩٤٨ — ١٩٥١ ، والجزء الثالث ، باريس ١٩٣٠ م .

عياض (القاضى)

المدارك .

الغزالى (أبو حامد محمد بن محمد بن محمد)

احياء علوم الدين ، القاهرة ، ١٣١٦ هـ .
التبر المسبوك فى نصيحة الملوك ، القاهرة ١٣١٧ هـ .
المنقذ من الضلال ، القاهرة .

ابن فرحون (برهان الدين ابراهيم بن على بن محمد)

الديباج المذهب فى معرفة أعيان علماء المذهب ، القاهرة ١٣٢٩ هـ .

ابن الفرضى
تاريخ العلماء ، القاهرة ١٩٥٤ م .

المالكى (أبو بكر عبد الله بن أبى عبد الله)
رياض النفوس ، نشر حسين مؤنس ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ م .

مبارك (على)
الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٤ — ١٣٠٦ هـ .

المقرى (أحمد بن محمد التلمسانى)
نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، طبعة محمد محيى الدين عبد الحميد ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٩٤٩ م .

المقريزى (تقى الدين أحمد بن على)
اتعاظ الحنفا بذكر الأئمة الفاطميين الخلفا (مخطوطة استانبول) .
المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، مطبعة النيل بالقاهرة ١٣٢٤ — ١٣٢٦ هـ .

المنذرى (زكى الدين أبو محمد عبد العظيم بن عبد القوى ابن عبد الله)
التكملة لو فيات النقلة (مخطوطة مكتبة البلدية بالاسكندرية) .

ابن موسى (أبو اسحق ابراهيم اللخمى الشاطبى)
كتاب الاعتصام ، نشر محمد رشيد رضا ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م) .

ابن وضاح القرطبى (أبو عبد الله محمد)

كتاب البدع والنهى عنها ، نشر محمد أحمد دهمان ، دمشق ١٣٤٩ هـ (١٩٢٨ م) .

ياقوت (أبو عبد الله بن عبد الله ، الحموى)

معجم الأدباء ، طبعة محمد فريد رفاعى ، ٢٠ جزءا ، القاهرة ١٩٣٦ .

معجم البلدان ، نشر فستنفلد ، ليبزج ١٨٦٦ — ١٨٧١ م .

ب ـ المراجع الأجنبية

Alarcon (M.)

= Lampara de los Principos por Abubequer de Tortosa (trad. Espan.), Madrid 1930 - 1931

Asin (M.)

= Un Faquih Siciliano Contradictor de Algazbli (Centenario della Nascita de Michele Amari. Estratto. Palermo 1910).

Ben Cheneb (M.)

= Etudes sur les Personnages Mentionnés dans L'Idjaza du Cheikh 'Abd al-Qadir el Fasy, Paris 1907.

Boigues (Paus)

= Historiadores y géografos arabigo - espanoles.

Brockelmann (Carl)

= Geschiehte der Arabischer Litteratur (V. I), Supplementband (I).

Dazy (R.)

= Recherches sur l'histoire et la Littérature de l'Espagne durant le moyen-âge, Paris, Leiden 1881, II.

Gayangos

= History of Muhamedan Dynasty in Spain, London 1840-43.

Palacios (Asin)

= el Islam cristianizado 184 , No I vgl. Z. D. P. v. XVII, 16

Palancia (Gonzalez)

= Historia de la literatura arabigo-espanola , Barcelona 1928.

Quatremére (Et.)

= J. A. (S, t 17. pp. 147-54).

Robles (Guillén)

= Catalogo de los Manuscritos àrabes existentes en la Biblioteca Nacional de Madrid S. « Tortuxi ».

الفهرس

صفحة

الباب الأول

نشأته الأولى وأسرته

(أ) دراسته الأولى على أبى الوليد الباجى . . . ٦
(ب) أسرته ٧

الباب الثانى

الطرطوشى فى المشرق

(أ) فى مكة ١٤
(ب) فى بغداد ١٥
١ ـ الطرطوشى والمدرسة النظامية فى بغداد . . . ١٥
٢ ـ أساتذة الطرطوشى فى بغداد ١٨
٣ ـ اتجاه الطرطوشى الى التصوف منذ كان فى بغداد ٢١
(ج) فى الشام ٢٧
١ ـ فى بيت المقدس وجبل لبنان ٢٧
٢ ـ فى أنطاكية ٣١

صفحة

الباب الثالث

الطرطوشى فى مصر

١ ــ الاسكندرية الرباط وباب المغرب ٣٦

٢ ــ فى مدينة رشيد أولا ٣٩

٣ ــ الطرطوشى يصل الى الاسكندرية اثر محنة سياسية علمية ٤١

٤ ــ موعظة الطرطوشى للوزير الأفضل شاهنشاه. . ٤٨

٥ ــ الطرطوشى وابن حديد قاضى الاسكندرية . . . ٥٠

٦ ــ الأفضل يحدد اقامة الطرطوشى فى جامع الرصد بالفسطاط ٥٥

٧ ــ الطرطوشى والوزير المأمون البطائحى . . . ٥٧

الباب الرابع

تلاميذ الطرطوشى

ــ تقدمة ٦٢

١ ــ سند بن عنان ٦٣

٢ ــ أبو الطاهر بن عوف ٦٥

٣ ــ أبو بكر بن العربى ٦٨

٤ ــ المهدى بن تومرت ٧٠

صفحة

الباب الخامس

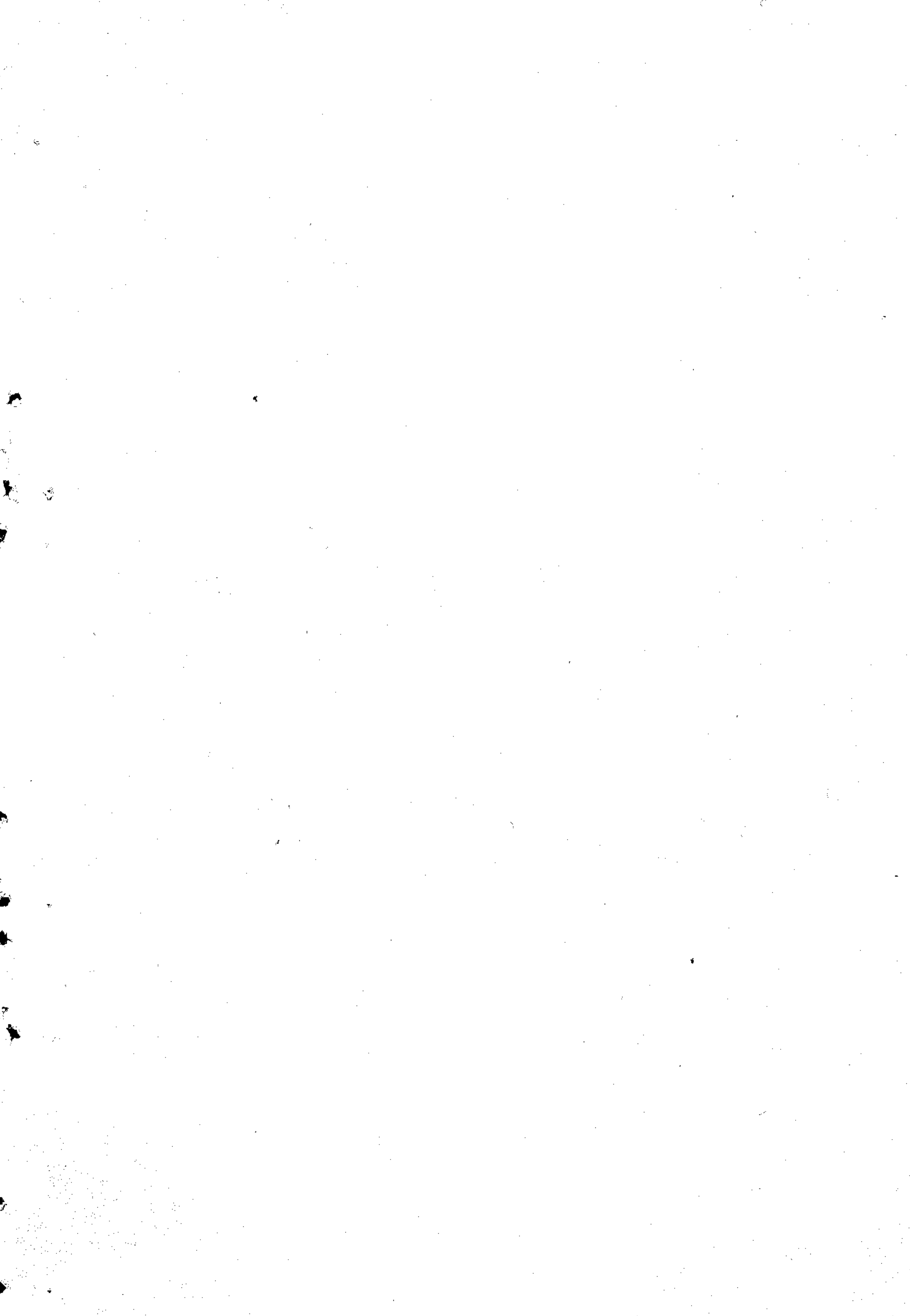
مؤلفات أبى بكر الطرطوشى ٧٤

ملحق

نص رسالة أبى بكر الطرطوشى الى السلطان المرابطى
أبى يعقوب يوسف بن تاشفين ١١١

مراجع الكتب

(أ) المراجع العربية ١٢٥
(ب) المراجع غير العربية ١٣١



صدر من سلسلة أعلام العرب

اسم الكتاب	المؤلف
١ ـ محمد عبده	عباس العقاد
٢ ـ المعتمد بن عباد	على أدهم
٣ ـ جابر بن حيان	د . زكى نجيب محمود
٤ ـ عبد الرحمن بن خلدون	د . على عبد الواحد واف
٥ ـ ابن تيمية	د . محمد يوسف موسى
٦ ـ معاوية	ابراهيم الابيارى
٧ ـ سيد درويش	د . محمد أحمد الحفنى
٨ ـ عبد القاهر الجرجانى	د . أحمد بدوى
٩ ـ عبد الله النديم	د . على الحديدى
١٠ ـ عبد الملك بن مروان	د . ضياء الدين الريس
١١ ـ مالك	أمين الخولى
١٢ ـ القلقشندى	د . عبد اللطيف حمزه
١٣ ـ الطبرى	د . أحمد محمد الحوفى
١٤ ـ الظاهر بيبرس	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
١٥ ـ ابن الفارض	د . محمد مصطفى حلمى
١٦ ـ المختار الثقفى	د . على حسنى الخربوطلى
١٧ ـ الوليد بن عبد الملك	د . سيدة اسماعيل الكاشف
١٨ ـ الأصمعى	د . أحمد كمال زكى
١٩ ـ زكريا أحمد	صبرى أبو المجد
٢٠ ـ قاسم أمين	د . ماهر حسن فهمى
٢١ ـ شكيب أرسلان	أحمد الشرباصى
٢٢ ـ ابن قتيبة	د . عبد الحميد سند الجندى
٢٣ ـ أبو هريرة	محمد عجاج الخطيب

اسم الكتاب	المؤلف
٢٤ ــ عبــد العزيز البشرى	د . جمال الدين الرمادى
٢٥ ــ الخنســاء	محمد جابر الحينى
٢٦ ــ الكندى	د . أحمد فؤاد الاهوانى
٢٧ ــ الصاحب بن عباد	د . بدوى طبانه
٢٨ ــ الناصر بن قلاوون	د . محمد عبد العزيز مرزوق
٢٩ ــ أحمــد زكى	أنور الجندى
٣٠ ــ حســان بن ثابت	د . سيد حنفى حسنين
٣١ ــ المثنى بن حارثة الشــيبانى ...	عقيد : محمد فرج
٣٢ ــ مظفــر الدين كوكبورى	عبد القادر أحمد
٣٣ ــ رشــيد رضا	د . ابراهيم أحمد العدوى
٣٤ ــ اســحاق الموصلى	د . محمود أحمد الحفنى
٣٥ ــ أبو حيــان التوحيدى	د . زكريا ابراهيم
٣٦ ــ ابن المعتز العبــاسى	د . أحمد كمال زكى
٣٧ ــ الزهاوى	د . ماهر حسن فهمى
٣٨ ــ أبو العلاء المعرى	د . عائشة عبد الرحمن
٣٩ ــ أحمــد لطفى السيد	د . حسين فوزى النجار
٤٠ ــ الجوينى أمام الحرمين	د . فوقية حسين
٤١ ــ صــلاح الدين الأيوبى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٤٢ ــ عبد الله فكرى	محمد عبد الغنى حسن
٤٣ ــ عبد الله بن الزبير	د . على حسنى الخربوطلى
٤٤ ــ عبــد العزيز جاويش	أنور الجندى
٤٥ ــ ابن رشيد القــيروانى	عبد الرءوف مخلوف
٤٦ ــ محمــد عبد الملك الزيات ...	محمود خالد الهجرسى
٤٧ ــ حفنى ناصف	محمود غنيم
٤٨ ــ أحمــد بن طولون	د . سيدة اسماعيل الكاشف
٤٩ ــ محمود حمدى الفلكى	أحمد سعيد الدمرداش
٥٠ ــ أحمد فارس الشدياق	محمد عبد الغنى حسن
٥١ ــ المهــدى العباسى	د . على حسنى الخربوطلى
٥٢ ــ الأشرف قانصوه الغورى	د . محمود رزق سليم

اسم الكتاب	المؤلف
٥٣ ـ رفاعه الطهطاوى	د . حسين فوزى النجار
٥٤ ـ زرياب	د . محمود احمد الحفنى
٥٥ ـ الكندى « المؤرخ »	د . حسن أحمد محمود
٥٦ ـ ابن حزم الاندلسى	د . زكريا ابراهيم
٥٧ ـ ابن النفيس	د . بول غليونجى
٥٨ ـ السيد أحمد البدوى	د . سعيد عبد الفتاح عاشور
٥٩ ـ المأمون	د . محمد مصطفى هدارة
٦٠ ـ المقرى	محمد عبد الغنى حسن
٦١ ـ جمال الدين الأفغانى	عبد الرحمن الرافعى
٦٢ ـ الجاحظ	د . احمد كمال زكى
٦٣ ـ ابن ماجد	د . انور عبد العليم
٦٤ ـ محمد توفيق البكرى	د . ماهر حسن فهمى
٦٥ ـ محمود سامى البارودى	د . على محمد الحديدى
٦٦ ـ ابن زيدون	على عبد العظيم
٦٧ ـ عمر مكرم	د . عبد العزيز محمد الشناوى
٦٨ ـ موسى بن نصير	د . ابراهيم أحمد العدوى
٦٩ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٠ ـ عبد العزيز بن مروان	د . سيدة اسماعيل كاشف
٧١ ـ على مبارك	د . حسين فوزى النجار
٧٢ ـ أبو الحسن الشاذلى	د . عبد الحليم محمود
٧٣ ـ العزيز بالله الفاطمى	د . على حسنى الخربوطلى
٧٤ ـ أبو بكر الطرطوشى	د . جمال الدين الشيال

دار الكاتب العربي للطباعة والنشر